2008

إبداعات عربية
رواية

مكتبة الأسرة الأردنية
القراءة للجميع

مالك حداد

التلميذ والدرس

منشورات
وزارة الثقافة

مالك حداد

التلميذ والدرس

ترجمة الدكتور
سامي الجندي

التلميذ والدرس

الإهداء

إلى سوزون وأخي رشيد

إلى كبيري بيار

إلى جميلتي صفية

إلى دميتي نادية

إلى ولدي مالك

تقْدمَة المعرّب

قفوا أيها الرفاق

إن الجبل لعلى حق

. . .

بأي اسم أدعوك

يا خطو الموتى الثقيل؟

أنا اسمي جثة

كنت حياً وكانت لي بنات

شربت حليباً

وماء

ووهماً

. . .

قفوا أيها الرفاق

إن الجبل لعلى حق

***

بهذه الكلمات من ديوان «الشقاء في خطر» أبدأ الحديث عن مالك حداد . لقد حرت من أي زاوية أنظر إليه ، من زاوية الشاعر أم الفنان ، أم المناضل ، أم الإنسان بل كيف يتاح لي ذلك وأنا لا أجد لقدمي أرضاً تستند إليها ، فالأحداث في وطننا العربي خلب قلقة تباعد بين الإنسان وإنسانيته ، يرتد فيها البصير حسيراً .

عندما نريد فهم إنسان لا بد من أن نكون على مستواه حتى نستطيع التحديق به ملء أعيننا ، من أن ندرك مأساته . . من أن نرى .

إن الإنسان يمر في وطننا بمرحلة التجربة لأنه يلقي على نفسه سؤالاً فيه كآبة تصل إلى حدود اليأس : أأستطيع أن أكون سيّد مصيريّ ، سيّد نفسي . . .؟ أأستطيع أن أقول لا إذا شئت ، ونعم إذا شئت ، هل أملك الخيار بين الرفض والقبول؟

إنساننا حائر ، أزمته أنه يدرك أنه حائر يجدّ ويجهد دون جدوى للوصول إلى عالم اليقين ، أمنيته أن يمسك بخيوط الأحداث لعله يسيطر عليها ، ولكنه ما يلمسها حتى يحس أنها وهم وأن هنالك خيوطاً أخرى تحيكها يد خفية فتبني له عالم الواقع الغريب عنه ، فينهد لتهديم هذا الواقع ويقصر به الجهد . ويلحّ عليه السّؤال : لم تهتز الأرض تحت قدمي؟ أما من سبيل لأن تثبت؟ ويحاول ، ولكن محاولته لا تتجاوز حدود

العبث . . إن خسرانه الكثير من المعارك أفقده الثقة بالمستقبل حتى لظن أنه كان يبني دائماً على الرمال .

قد ألجأ في مثل هذه الحال إلى تعلل بعض الكتّاب الذين يكذبون الواقع فينفخون الأمل بالصدور ولكن مجرد النظر إلى ما يكتبون يجعلنا نعتقد أنهم لا يثقون بما يقولون ، وإنما يصوغون كلمات ذات رنين ، وجملاً لها وقع ، والرنين والوقع لا يبدلان شيئاً من كآبة الواقع الحزينة .

يقول مالك : «ليس الكاتب في وطننا قائداً ، إنه ملك للجمهور» . وقد يسمح لي أن أوضح ذلك فأقول : إن الكاتب صورة الجمهور ، بل هو حقيقته ، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يعبر عن مأساته . وأنا جزء من جمهور فقد الثقة بنفسه ، زاغ بصره لأن الأرض التي تطؤها قدمه رجراجة حتى ليخال أنه في الفراغ . أما مالك فإن قدمه تغرز في طين جبل من الدم ، فيه من الشقاء ما يقسره على أن يؤكد ذاته . وشتان بين إنسان يخوض المعركة بإنسانيته كلها وإنسان تخلت عنه المعركة لأن لها معاني لا يدركها وأسراراً لا يطالها فهمه ، مهمتها أن تضع الشاعرين بواجبهم على الرف ؛ بين إنسان يجهل أعداءه لأنهم يتدثرون بألف حجاب من الملق والدجل وإنسان ينظر إلى المستقبل بملء عينيه ، يتنفس هواءه من على قمم الأهراس ، يثق به ثقة الحرية بيد المجاهد .

كيف نستطيع أن نشترك معه بعمق الرؤية، نحن الذين ما نبني عالماً إلا وينهار، ما نؤمن بقيمة حتى نلوثها بأيدينا وباختيارنا بالطين؟ كم من أسطورة غنينا نظن أنها هي التاريخ فإذا بالواقع المريب يجردها من الفن والجمال والبطولة. ولكننا كلما ضلت عيوننا على متاهات دروب المأساة نهدنا نتلمس النور في بعض أجزاء الوطن، وفي أمثال مالك، فقد نجد فيه المتكأ الذي يلم شعث آمالنا ويعيد إلينا الثقة بالأرض وبأقدامنا.

قال لي عندما لقيته: «لقد ولدت في الثامن من أيار سنة ١٩٤٥، سنة الشقاء، سنة المجزرة الرهيبة». وجد نفسه في ساعات الدمار فنفذت عينه من خلال ركام القرى التي هدمت على سكانها، والعزل الذين جزّ المظليون رقابهم وحراب المستوطنين التي يغزونها في صدور الآمنين غيلة وغدراً، نفذت من خلال هذا الشقاء إلى المستقبل الجزائريّ المعطاء الذي يرفد الإنسان بالخير العربي، الخير الذي يمرع في ظلال تينة عمرها مائة عام... إنه دائماً مع الحمائم التي تؤوب في المساء إلى البيت القروي الناعم بشمس بلادنا المحرقة وزرقة سمائنا المشرقة بأمل كبير.

أزمته هذا المستقبل الذي يخبئ له في حناياه نهايته كفنان، كشاعر الشقاء، قال في محاضرة ألقاها في دمشق:

«نحن الكتاب الجزائريين الذين تكتب باللغة الفرنسية يجب أن ننتهي عندما تتحرر الجزائر لأن مهمتنا تنتهي آنئذ» . وهو يحن إلى هذه النهاية ، يلحّ عليها ، يتطلع إليها من كل جوارحه ، لأن ألمه الكبير أنه منفي باللغة الفرنسية . فلقد قال في حديث له مع كامو : «إن اللغة الفرنسية هي منفاي» . وهو يريد أن يتحرر من هذا المنفى ، من هذا السجن المظلم ، رغم أن الغار الذي يكلل هامته صيغت أوراقه من تلك اللغة ، ومأساته أنه لا بد من أن أترجم أنا لجده إكليل غاره فجده لا يعرف حرفاً من الفرنسية ، بل يعتبر مجرد التحدث بها إثماً .

وقفت طويلاً عند أبيات له :

أبتاه!!!

حرمت فتاك

موسيقى الجسد . . . انظره :

يرطن باللسان الأجنبي

كلمات تعلمها

يوم كان راعياً

يا إلهي ما لهذا الليل ، لماذا يظلم كل هذا الليل في عيني؟ . .

***

ليله الطويل الشاق العنيد ، منفاه وعذابه ، إنه يحن إلى

الكلمة الوطن ، لأنما في البدء كانت الكلمة . . .

«أماه» تقال عندنا «ياما» وأقولها «مامير» ma mère ظلمته أن بينه وبين أمه منفى أشق من التيه . . . هو غريب عن الجسد الذي حمله ، عن صورة الجزائر الشقية وغربتها . وقفت أيضاً عند هذه الكلمات وجهدت في أن أتبين الظلمة التي في عيني مالك لعلي أكتشف حدودها فإذا بها أظلم وأبعد من كل الحدود .

أنا أقول لأمي بلهجتي القروية (يمو) فأحس بين غضون وجهها وصلاتها إذا أذّن المؤذن عند الفجر علاقة حنين أصيلة تعبر عنها دمعة فراق أو يد ترتفع إلى الله ، وقد أستطيع أن أكتب صلواتها في قصة ، أما مالك فتظل يده جامدة والورقة بيده خرساء ، يجد أن أية كلمة يخطها لغو لا معنى له ما دامت بعيدة عن أشيائه الصغيرة التي يحب ، وما دامت تهوم في أجواء أخرى ولكنه لا بد وأن يكتب حتى ولو كان ذلك بالفرنسية لأن شقاءه كبير ، أكبر من أن يحتمل الصمت .

نعم ، وقفت طويلاً عند هذه الكلمات ، وأعترف أني لم أستطع الوصول إلى إدراك شقائه كله . أنا أحب العربية كما يحبها ، ولكنني تعودت صوتها أكثر مما يحق لي ، نغمتها تشترك بكل كياني ، باتت عندي عادية ، لم أحسّ بالغربة عنها ولا الحنين إلى الحاء والضاد . أما هو فتدور بحلقة وتدور فتخرج هاء

عجماء أو دالاً تنبو على السمع ولكنه لا بد وأن يكتب ، لا بد وأن يغني أحزان الجزائر ، فعكف على الفرنسية يبحث عما يروي ظمأه منها وكأنه يقضمها قضماً ، فخرجت من بين يديه كلمات تحس وأنت تقرؤها بما يشبه التعذيب وكأنه انتقم من اللغة الفرنسية فلم يكتبها إلا بعد أن تجمّع في حروفها كل التعبير ، كل أجوائه الخانقة . فوجدت في ترجمته عسراً لم أعانه في أي كتاب آخر .

شقاؤه كبير ، أكبر من أن يحتمل الصمت ، أكبر منه ، أكبر من العالم كله ، لا يبلغ مداه إلا المستقبل والطريق التي تؤدي إليه . . إن المستقبل هو أسطورة الشاعر التي يحدق فيها فيراها بكل جوارحه واقعاً محتوماً لأن الطريق ملحمة رائعة تبنيها بطولات زرعها ونمّاها الشّقاء فكانت على قد الملحمة بل هي الملحمة ذاتها ، ومالك هو شاعر الطريق ، شاعر الطريق فحسب :

نهدوا إلى الأسطورة ،
فتلقفتهم الأسطورة بين ذراعيها

❊❊❊

لقد كلمتهم ،
تلمست أيديهم ،
لهم أطفال ، بله أن لهم أخطاءهم ،

ولكنهم يعرفون كيف يبتسمون في حالك الظلمات .

***

يعرفون كيف يبتسمون لأن فجر الجزائر ، بل فجر إنساني جديد يومض على أسارير وجوههم وفي أحداقهم .

قال لي مالك : «لقد جددنا معنى كلمة إنسان . .» . لقد قاوم الاضطهاد والشقاء كثيرون عبر التاريخ ولكنهم كانوا يستسلمون له في قراره نفوسهم ويدفعهم الغرور عن أن يعلنوا ذلك . أما مناضلو الجزائر فقد اعتلوا عليه ، لم تند عنهم خلال سبع سنين استغاثة واحدة ، والإنسان الجديد أسمى من أن يشكو أو يئن لأنه تجسيد لقضية . . . لقد كانوا دائماً على مستوى الحرب وأملهم في عالم جديد : الإنسان فيه سيد قدره .

قال لي أنه سكرتير التاريخ ، وأحب أن أضيف أنه سكرتير بدايته ، لأن التاريخ ينتهي بالإنسان ويبدأ به . والعرب في الجزائر يعانون مخاض الإنسان الجديد : اللحظة التي يتشوق إليها مالك . . . اللحظة التي ينتهي بها مالك .

إنه إذن سكرتير المرحلة التي تسبق ميلاد التاريخ ، سكرتير الطريق ، الجسر الذي يعبر عليه من سيولد معهم الإنسان .

«لقد أصبحوا روحاً ، أصبحوا وطني» .

إنهم معه دائماً في أحلامه ورؤاه ، بل وفي أشيائه الصغيرة :

«أجدهم عندما أشتري :
صحيفة ،
إنهم أصدقائي . ليسوا كلمات ،
ولا أرقاماً أو أسماء ،
إنهم آلاف الأيام وعشر سنوات من ذاتي .
إنهم في اللقمة التي نطعم معاً ،
ولفيفة يدفع لتدخينها السّام ،
يعرفون أبنائي ،
أعطيتهم قصائدي ،
كانت تحب أمي قلوبهم ،
إنهم رفاق طفولتي ،
ولطالما تكلمت معهم .

منهم يأخذ ما يعطي وفي سبيل قضيتهم يكتب . إنه يرفض أن يدعى شاعراً ، رغم حرارة أبياته وجمالها ، أو كاتباً رغم شاعرية ما كتب ، يطلب من الآخرين أن يسموه باسمه الحقيقي الذي يملأه غروراً . كان يقول لنا دائماً : «أنا مناضل» . لا يرضيه ولا يثير خياله إلا الذين لا يبلغون العشرين من عمرهم : أنا لا أعرف أحداً بلغ العشرين في الجزائر . . . يعتد بالساعات التي قضاها على الجبال أكثر مما يعتد بكل ما كتب ،

بل يرى أن مقياس العظمة في ما كتب هو ما يمكن أن نرى فيه من ملامح الثورة والشهداء :

مات صديقي على نغم القيثار
وغناء القمح
يا لها ميتة

كان في ريعانه
كان جزائرياً

لقد كتب لي تاريخي .
كان أحسن حديثاً من نشيد القمح
أريد أن أقول له شكراً
فأنا موسيقيّ لأنه يبدع الموسيقى ،
أظل يقظاناً أمام الحلم الذي نبنيه ،
وأقول لك شكراً .

إن مالكاً صيحة نضال لأجيالنا كي تقف على أقدامها وتحدق بالمشكلة بكل بشاعتها وقسوتها حتى تكون على مستواها . . . كي تصم آذانها على الأصوات الضعيفة فلا تصيخ السمع إلا لنداء كبير ، فلقد شوّه الضعفاء معركة أمتنا ومزقوا قواها لأن أقدامهم أضعف من السير على الدروب الخطرة ، دروب أمتنا .

إن ما كتبه مالك صلاة ونداء : صلاة في محراب أمته ، ونداء يستلهمه من الجبل فيرسله إلى رفاقه الذين لا يريدون أن يبلغوا العشرين من عمرهم :

قفوا أيها الرفاق ،

إن الجبل لعلى حق

سامي الجندي

١

ما كنت أعلم أن ابنتي هكذا جميلة . وقحة ثائرة . ليست للزمن ذاكرة . لقد نسيت ، ليست للزمن ذاكرة ولكنه فنان . وهذه الكلمات التي تلهو : الطقس جميل . . . أنا قبحت منذ عهد بعيد . لم يبدلني الزمن أبداً . بت ذا بطن ، بت أقل تدخيناً . إن ما ينبئ عن عمري طيب قلبي أكثر مما تفعل الشعرات البيض القليلة التي انزلقت خلل أفكاري . لن تأتي أبداً التجاعيد كي تلطف وجهي فأنا لست على نبل الصخور التي تخططها الموجة . أنا كل ما لي وضع اجتماعي . وضع اجتماعي وأهواء . والدهشة أني عشت . أنا لم أعرف نفسي أبداً كما ينبغي أن أعرفها .

أنا لا أعرف ابنتي .

ولدت فاضلة ساعة جاءت الكلمات . نظرت إليها لم أفهم . عيناها سوداوان ، تلمعان ، خائفتان ، إنهما تريدان الهجوم علي . المدينة الصغيرة يداعبها الوسن فيما وراء

مكتبي . المدينة الصغيرة دائمة النعاس ، فالحر كان شديداً فوق سطوحها وسقوفها والبحر . وجاء الليل كامرأة . كامرأة صبية جاء مع فاضلة .

الدقيقة ضخمة ، ثقيلة ، طويلة . يجب أن نجتازها ، أن نقفز الدقيقة . الحاضر ذو زمن . أنا لا أحسن الانتظار .

الطفلة التي لا أعرفها أبداً ، أنا أعرفها ، بقلبي ، من كل قلبي . والحق أننا لا نستطيع معرفة شيء بهذه الوسيلة . فالقلب لا عقل له . وخاصة قلبي . إنه قلب معتوه .

عصر هذا اليوم زرت مريضاً . وهو طبيب أعرفه منذ أربع سنوات . جراح من أصدقائي .

قال لي : أنت طبيب لا تكذب .

أجبت : أنا أكذب لأني طبيب .

حاول أن يبتسم : لا أمل إذن!!!

لا أمل؟؟ إن الكلمات هي التي لا أمل فيها . أما الفكرة فدعنا منها . أنا قادر على أن أتصرف بأفكاري . أما التشخيص فقد أملاه علي هو .

أمن المستطاع أن نكتب على ورقة وصفة : لمن الدور؟

إنه دورك يا صديقي ، دورك أنت الآن . إنه لأمر مضحك! لقد عالجت خلقاً كثيراً ، شفيتهم ، خلصتهم ، أعدت إليهم الصّحة ، والآن هيا ولنقم بواجب الاحترام يا صديقي روبير إنها

تنتظرك ، فلا تتركها على انتظارك . يجب أن تذهب إليها . أما السرطان الذي أصابك فما كنت لأهتم به . رأيت عينيك ورأيت عيني .

- في مثل جثتك . . .

كنت على علم أنه سيذهب ليلاً . كما كان هو على علم بذلك . ولكني أفكر فقط بتلك الصورة التي بين الأطباء الداخليين والممرضات والصندوق القروي الذي في زاوية الغرفة .

ثم ردد الهاتف :

- . . . أعتذر ولكن الدكتور كوست علق مواعيده . . .

قال بصوت أبيض :

- علق مواعيده!!

المسألة مسألة أفضلية ، وعنده عمل في مكان آخر .

أنا لا أقدر وليس ضرورياً أن أروي ذلك لابنتي . إن ابنتي لم تأخذ موعداً . وأنا لست الموت تماماً . أنا لست طبيبها . أنا لست أباها تماماً وهي ليست تماماً ابنتي .

اريد أن أصغي ، أن أصغي طويلاً . ولست بحاجة لأن أتحدث عن ضخامة صمتي .

إن الكلمات هي التي لا أمل فيها .

المدينة الصغيرة وسني . ستنام المدينة الصغيرة . ستحلم

ولا شك وأنا كابوسها .

أنا أدعى قدير ، صلاح قدير ، أنا الدكتور قدير أقطن بلدة صغيرة من فرنسا وسني منذ سنة ١٩٤٥ .

***

٢

إنها تنظر إليّ دائماً . أما أنا فأنظر إلى سروة قرب بونة ، وليمون مثلج . لقد رسم البحر ، من هذه الجهة ، طفل في مدرسة ابتدائية . كانت الحرارة صفراء وفاضلة تستحم للمرة الأولى في «انبلاج الفجر»[1] . خيمت الزرقة على كل مكان . وحول الظهر كان في الشوارع الضيقة وفي كؤوس الليمون المثلج ما يشبه الفرح . لقد أودعت قلبي الشارع الذي يقطنه العرب .

أودعت قلبي كاساً من الليمون المثلج .

أنا أحزر أنها تريد أن تتكلم .

إن الدقيقة بعض الزمان .

أخشى أن يرن الهاتف .

أخذ الدكتور كوست موعداً هذا المساء .

إن الدقيقة بعض الزمان .

---

(١) خليج صغير على بعد عدة كيلو مترات من بونة .

إن ابنتي ثانية عمرها اثنتان وعشرون سنة .

وشيء يدق ، يقرع أجراساً في داخلي . بعيد هو الليمون في الكؤوس الصغيرة الصغيرة . أمن الممكن يا إلهي! إنها باتت تحمل الشهادة الثانوية؟

لها نهدان تكورا ، والتبرج ليس من ذوقها .

إنها امرأة من غير أن تتبرج .

إنها جميلة أقول لكم .

عندما بلغت العشرين لم أكن رجلاً . كنت طالباً . العشرون ليست لها اليوم نفس الصفات ، نفس الجسد العددي . أنا لم أفهم أبداً كيف تكون الأصفار أعداداً .

***

لن أقول لها أنا أصغي لك يا ابنتي .

إنها لم تجئ كي تشرح لي . جاءت تطلب ، تلح ، تحكم .

إن يدي لتحنو ، مع ذلك ، إذا مرت في شعرها . إن يد الأب لترى ولو كان حسيراً . إن اليد عندما تلمس عن قرب قريب تصبح الحدس بذاته تلائم حدة نظرها مع اكتشاف بديء لإرث تعرفه حقاً ، تتعرف عليه ، تدفع عنه .

ابنتي .

نعم ابنتي .

لقد ادلهمّ الآن الليل على المدينة الصغيرة الوسنى .

المدينة الدائمة الوسن . عادت الأقداح الصغيرة والليمون المثلج إلى مسقط رأسها ، أعني إلى بيتي .

الدكتور كوست على موعد . أنا على موعد مع ابنتي .

ابنتي؟

وكان هذا حق .

لقد شخت إذن ولا بد لي من أن أجد صفة تؤكد ذاتي!

أية صفة؟

أنا تقريباً أبوها . شرعية أبوتي آتية من حناني وقناعتي أن الكلمات تافهة وأن الحياة مفتولة كشجرة تعانقها وتلهبها الصاعقة كما يتلوى الدكتور كوست في اللحظة التي أتأمل فيها ابنتي ، الدكتور كوست ، الدكتور كوست صديقي الذي أحيا الشقاء والآمال . . .

أود لو أن البكاء في غير عيني . الليل ليس جميلاً .

لن أقول :

- أنا أصغي لك يا ابنتي .

لليّل ، لابنتي .

تركت لليل ولابنتي أن يكلماني .

فكرة قلبتني فجأة رأساً على عقب وأفزعتني : «تراها تريد أن تكلمني بصيغة الجمع؟» ترى ما يكون لو قالت لي مثلاً : «لقد جئت يا دكتور من أجل أن . .» .

آه ، لا!! لن أطيق هذا!! لأنه شيء بليد مزعج .

أنا أفهم أن تكون الكلمات تافهة ولكن ما يفزعني أن تصبح شريرة .

ما تراني فاعل بهذه الدقيقة؟

دعاني الهاتف لحسن الحظ .

نهضت وقد تعزيت واتجهت إليه قريباً من النافذة . السطوح زرقاء .

- الدكتور كوست في أسوأ حال . .

أنا آت حالاً . .

سمعت ابنتي .

أشرت بيدي إشارة تعني :

- أعتذر . . .

ولكني لم أقل شيئاً ، لم أنبس ببنت شفة .

***

٣

قال لي الدكتور كوست طاب مساؤك على طريقته . بعينيه . لم أعرفه . أنا لا أعرف الموت .

كم ابتسم لي عصر هذا اليوم . وكعصر هذا اليوم قال :

- أنت طبيب لا تكذب .

لم تبك زوجته . كانت تعلم أن الدكتور كوست نعسان .

كان وسناناً ، كالمدينة الصغيرة .

لقد صنعت أنا كل ما يمكن فعله .

لم يكن هنالك ما يمكن فعله .

***

رأيت العنب يجف على العناقيد الصفراء . رأيت يدي الدكتور كوست تتدليان ، تسترخيان ، مسترخيتين ، إنهما تشبهان قفازي مطاط . صفرتهما الشمعية تذكر بالطلق المبلل .

يجب أن نقدم احترامنا دكتور كوست ، وأن تعلق مواعيدك .

أنا أذكـر جـيـداً يدي الدكـتـور كـوست ، وهو جـرّاح من أصدقائي .

عندما عدت كانت فاضلة تدخن . أنا لا أحب أن تدخن المرأة . خاصة إذا كانت جزائرية .

وهذه ابنتي .

لقد دفعت المنفضة ببساطة .

أنا أخاف الرماد ، كل الرماد .

تحية ، دكتور كوست!!

***

ثم أخذت أصغي .

***

٤

أنا انتظر طفلاً لا أريده .

كانت الكلمات ترتسم في الصمت .

حلمت بهذا الطفل الذي ينتظر أباه .

أضافت :

- يجب أن تفهم أننا في الظروف الحالية . .

فمها جميل . ليست على حق .

***

ألقى الآن الدكتور كوست يده ، تلك اليد التي ليست شيئاً لولا الله ، تلك اليد التي تقوم بالعمليات . التي كانت تقوم بالمعجزات .

كنت أحياناً أذهب كي أراه يقوم بعملية ، ما هي غير مبارزة . تلك اليد بحاجة لله وما المبضع غير سبب . .

- لا تنس يا دكتور قدير أني أقدم كل شيء للآخر . . الآخر إنه الله أيضاً .

أو بالأحرى كانت عيناه الصغيرتان ، العينان البنيتان ، القويتان تؤكدان الصلاة :

- لقد بدأ يتخلى عني الله يا صلاح .

كنت أعرف الصراع في داخله . وما المبارزة غير حديث بين اثنين على شكل آخر .

***

- في الظروف الحالية . .

بي رغبة أن أقول :

- إن البشر يتبادلون الحب في الظروف الحالية . .

لكني لن أقولها . لن أقول شيئاً . طهارتي تأبى علي ذلك .

أنا غربي في مظهري . في مظهري فقط .

- ثم جئت الدنيا . . .

أنا أرتاب لماذا جئت يا صغيرة ولكن ياالله تطلعي إلى وجهي .

فاضلة تبدو من الجانب ولها هيئة استرداد حق .

آه! لو جئت فقبلتني ، فقلت لي : «بابا» . ما أنا إلا أبوك وهذا الأب جعلت منه الصدفة طبيباً .

ما تفعل الآن يا دكتور كوست؟ هل بدأ الله يتخلى عنك؟ ماذا يريد بيديك حامينا العظيم؟ هل حدثته عن خوفك قبل أن ترتدي قفازيك؟ إن الراحة العظيمة التي يمنحها الله لنا هي

في أنه يجعلنا نعتقد بأنه يحيط بكل شيء .

. . . أنا أذكر أن الوليد كان بلا رقبة . مسخ . القيصرية كانت شاقة . قطعة صغيرة من عظم الكتف فقط لقد عنيت وتحققت بذاتك من الدورة المغلقة لبروتوكسيد الآزوت . وهذا المسخ . لقد قالت القابلة -وهي طبيبة روسية عجوز- كانوا يسمونها «بابا ايفون» .

- إنه إغماء أزرق لحسن الحظ ، يجب أن نتركه . . .

. . . أنا أذكر غضبك . وضعت فمك الكبير على فمه الصغير . بدون شاش ، بإيمانك فقط . وعاش البائس خمساً وعشرين دقيقة . لم يكن مسخاً بالنسبة إليك وإنما أعجوبة . كنت تنضح عرقاً . كنت بشرفي جميلاً يا دكتور كوست . كنت تتنفس مع الميت الجديد . . .

قالت فاضلة :

- في الظروف الحالية لا أستطيع أن أحتفظ بهذا الطفل .

وعلقت : أنا نفسي لم أختر المجيء إلى هذا العالم . . .

المدينة الصغيرة الوسنى كانت تدق أجراسها .

الصراصير المروبصة كانت تنهي حلقة أخرى من كسلها وفي المحطة تصعد القطارات إلى جرونوبل . عندما تهدر القطارات تقول شعراً .

- أود لو تساعدني في أن أرحل . .

أن ترحل؟

في هذه اللحظة أود أن أقول :

- حدثيني عن الجزائر . . .

قليل علي نشيد الرحيل هذا .

سيطول الليل وأعتقد أن الدقيقة ستدوم طوال الليل .

***

أحاديث فاضلة كانت تدور حول أخطائي . ما كان ينبغي أن أسكن في فرنسا بعد وفاة زوجتي . ما كان ينبغي أن أفعل كذا أو أفعل كذا . تزعم أني بحثت عن السلام ، بحثت عن سلامي ، أني لست غير أناني من العامة مجرد من الوجدان الوطني بل من الوجدان كله . وأني من أصحاب الحلول السهلة وأني لجأت إلى الجانب الآخر من البحر ، الجانب الآخر من التاريخ الخ . . .

كلمات ابنتي كانت جميعاً بالحروف الكبيرة . الإهانة تبدأ بالكلمات الكبيرة .

وبعد ذلك الكلمات الضخمة .

لقد انتظرت أن تستعمل كلمة : خائن .

بأربعة حروف كبيرة .

بحروف ضخمة لأني خائن بالنسبة إليها . أفصح لي عن ذلك صدرها الخافق . ومن جهة أخرى أن الخونة وحدهم هم

الذين لا يجرؤ أحد أن ينظر إليهم وجهاً لوجه . وقد علمتني التجربة كم هو صعب التحديق في عيني مريض بائس ، ولكني تعلمت ذلك وما المرض إلا خيانة .

وترددت فاضلة طويلاً قبل أن تتم :

- ظننت أنك قادر على مساعدتي . . .

إنها لا تطلب شيئاً . تلح ، تأمر . لهجتها لا تعجبني .

ولكن لي الحق في أن أعلن ، لقد استحققت جلد إلية أيتها الوقحة .

في الحقيقة لم يكن حديثها إلا محاكمة .

٥

كان ما كان في مدينة تدعى باريس طالب وطالبة . كانا يقرآن الصحف ويشيخان سريعاً . ما كان يدرسان كثيراً فما كان لديهما متسع من الوقت . إن ابناء الشقاء يشيخون قبل معلمهم . المأساة ، المأساة الحقيقية هي أن الشقاء يجعلنا أذكياء أكثر مما يجعلنا مجتهدين . إن الحرب لا تعبئ إلا الجنود . إنها تجمّد العقول .

كان فيما كان حرب شريرة مجنونة . هذه الطالبة ، ذلك الطالب ما عادا يريان الصغار يدفعون مراكبهم في حدائق اللكسمبورغ . ولكنهما كانا يحبان الأطفال . نفسهما كانا طفلين . كانا يحبان الأشرعة الصغيرة وهي تخلق الأنسام على أقدام قصر عتيق . في المطعم الجامعي ، في ضاحية ميشيل ، وساحة سان سيلبيس ، أمام السين وفي الآحاد اليتيمة ، هذه الطالبة وذلك الطالب ما كانا يتكلمان عن شهادتهما ولا كانا يقولان كلمة حب .

كانا يتكلمان عن الجزائر والنتيجة سواء على كل حال .

ما كانا يتكلمان أبداً عن المطر أو الطقس الجميل . ولقد كانت يحبان المطر لأنه يأتي بالبزاق وبباعة الكستنا . كانا يحبان الطقس الجميل وهو يأتي بالأزهار عاشقة أيار ، شهر الشر . ١٩٤٥ ، سنة الشقاء . الطقس الجميل الذي يأتي بالثياب الفاقعة . الذي ينزل الدموع . ذلك الشهر ، ذلك اللعين بين كل الشهور ، ذلك الجحيم! .

هذه الطالبة ، ذلك الطالب كانا يتخبطان في تقويم العهد الغربي . إن تموز ما عاد يعني الحصاد العاشق وإنما عملية إنزال سنة ١٨٣٠ حوالي مدينة الجزائر . تشرين الثاني لا يعني أبداً (تيبازا) المشرقة وعودة الحلاوة إلى قمم (أكفادو) وإنما الكلب والدم . كانت الطالبة والطالب يريان في كل يوم ذكرى .

في تلك الحقبة ما كان هنالك أيام عيد .

كانت تلك نهاية العالم!

الأشخاص يتعرفون على بعضهم لسبب بسيط هو أنهم يعلمون أنهم جزائريون . إنها معجزة الحرب الوحيدة وهي تحقيق قاسم مشترك : الوطن . . . أو بتعبير أدق ، البلاد . إن الشقاء ليجمع الناس أكثر من الفرح . إن السهرات تصبح أشد حرارة عندما يهدد الشتاء . وأفضل مكان للحديث عن الحنين إلى العائلة هو الميتم . وما السعادة غير حادثة عابرة .

***

كان ما كان في بلدة تدعى باريس - تدعى رغم كل شيء باريس- بلدة ما زالت تدعى باريس- كان شارع صغير انبثق عن قصيدة لفرانسوا كوبيه . في ذلك الشارع كانت تلتقي فاضلة بعمر .

الأيتام يذهبون إلى المقهى .

ليس في باريس مقهى إلا وله تاريخ .

- مقال جريدة (العالم) فظيع!

ارتجفت فاضلة .

إن صاحب المقهى سعيد كغني . إنه لا يعنيه أن يخدم سكيراً أو يتيماً . إنه لا يخدم أحداً . إنه يخدم نفسه . وهما يصغيان حولهما إلى المدينة التي لا تبالي . والسيارات المفلطحة الأنف كملاكمين . وكذلك الحمائم . وفاضلة ترتجف في باريس ، ما عاد فرانسوا كوبيه يغني الحب .

- لقد صوتوا للسلطات الاستثنائية! . . نعم يا فاضلة لقد صوتوا ، هم للسلطات الاستثنائية . نعم يا فاضلة ، نعم . هم أعني النواب الشيوعيين . هم ، الأمل الخلب لعقيدة قديمة . هم ، إنهم . .

ولكن «الفركور ستثور» . فماذا يهم النادل ، والرقم ٦٣ الآتي من (لامويت) ، والحمائم على الساحة وسماء باريس ، باريس التي ما زالت باريس ولكنها لا تستحق أن تبدأ بحرف

كبير . . . وماذا تهم بائعة الصحف في كشكها ، في وجرها بجانب شمعتها ، بائعة الصحف الفقيرة ، التي لن تصبح غنية وهي تمنينا بآخر الأخبار بينما تقرأ في شعرها طبعة الماضي .

- لقد صوتوا للسلطات الاستثنائية!

ولكن الفركور ستثور ، فماذا تقول «سيئول»؟ ماذا تقول جيرنيكا والايستيرال وأوراس والنيمانشتاس وأورادور . . وأنت يا أخي موكه جي . . وأنت يا أخيتي دانييل . . وفوسيك ، وجساب ومكاريوس وذلك الشاعر الصامت ، وهوارد فاست ، وتلك الوردة على قمة جبل جراموس وذلك الشهيد الحبيب الذي أنّبه ضميره والمفكر الشاب ذو الشعر الأحمر وعمال المرافئ في وهران وعمال المرافئ في الجزائر . .

والصديق عضو اللجنة التنفيذية الذي قال يوماً لعمر : «سأذهب إلى بستان الخطار أجمع البزاق على قبر قدّور بلقايم[1] كي أقدمها لفتاتك» .

- لقد صوتوا للسلطات الاستثنائية! .

عمر لا ينتقي كلماته :

- حتى هم!

(١) سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري الذي مات سنة ١٩٤٠ ودفن في مقبرة الخطار في الجزائر .

إننا لا نغفر لمن نحب . لمن أحببنا . لأن الأمر يتعلق بحياة البشر . يتعلق بموت البشر .

***

كان هنالك المقهى الأسود وغرفة الهاتف إلى جانب دورة المياه . كان يخيم صمت قروي على المقاعد وحوض الأسماك وهو يدور والحمائم تهدل ما ليس هو بأغنية حب وإنما عادة فيها عتيقة .

- لقد صوتوا للسلطات الاستثنائية!

وفاضلة التي ترتجف تنظر إلى عمر .

عمر الذي يخرج من محفظته مستطيلاً من الورق المقوى .

عمر الذي ينظر طويلاً إلى مستطيل الورق المقوى .

عمر الذي يمزق بدقة ، بهدوء ، بإدراك قطعة الورق المقوى .

عمر الذي يضع القطعة الصغيرة من الورق المقوى في المنفضة كما نحيل ذكرى إلى رماد .

***

لقد مزق عمر البطاقة ، بطاقة انتسابه للحزب الشيوعي الفرنسي .

***

المسـؤول عن الحـزب ضـخم واثق . واثق من نفـسـه . يا للشـقي إنه لم يفكر أبداً بأخطائه . إنه أشبـه بافتتاحية . قـال لصديق لعمر جاءه معترضاً .

- السلطات الاستثنائية؟ ستفهم في شهور ثلاثة . . .

***

منذ سنوات عـديدة والإذاعة الفرنسية تعلن كل يوم اثنين للعالم ميزانيتها المنتصرة :

- كذا من الجزائريين أصبحوا خارج المعركة . . .

٦

يمكن أن يعود السّلام ، ولكنه لا يعود سريعاً إلى نفوس البشر . ليست للقلب ذاكرة . ولكنه ينزف دماً . إن البغضاء تدوم زمناً أما الحقد فخالد . أنا أفهم فاضلة . إنها ابنتي . لقد تألمت وما زالت تتألم . وذلك منطقي . يمكن تفسيره تاريخي .

إنها لم تعمل بالسياسة كأولئك التافهين الصغار الذين لجؤوا إلى نضال المراهقين كي يملؤوا فراغهم ورومانتيكيتهم بنت تكامل الغدد ، فعلقوا البيانات وحلموا بتبديل وجه العالم . كانت تتألم أكثر مما تعمل . كانت في سورة الغضب .

الغضب يا سياستي المسكينة الطيبة!! الغضب يا تمثال حناني ، يا ابنة حبي ، والمستقبل ، يا ربيع الليلك الذي أجهضه الربيع ، فاضلة يا ابنة بلادي ، الحازمة ، المعقدة ، البسيطة ، البسيطة كصباح الخير ، البسيطة كالليل ، يا مالكة البسمات الكئيبة ، الطفلة الطيبة التي ثارت على الريح الاستعمارية الكبرى ، تجرح ولا تكسر ، ظالمة ببراءة ، غاضبة

عن حق ، حنونة ، مرتجفة ، عاشقة ، وأكثر من كل شيء محبة ، جزائرية ، ولا غرو ، جزائرية كلها .

أنا لا أعرف أحداً ، لا أعرف أحداً ابداً بلغ العشرين في الجزائر .

***

هنالك واقع لا مرية فيه : أنا لست الله الرحيم . ورد فعلي لا يصدر عن وسواس ، أو خوف ، أو ومضة فكر بسيطة . أنا لا أعرف كيف أمنح الحياة فبأي صفة أعرف أو أقدر على أن أمنح الموت؟ أنا لا أعاند كطبيب أو أخلاقي أو مؤمن .

والحق أنا لا أفهم الموت . أنا أقبل الانتحار لأن المنتحر مسؤول عن انتحاره لا يشرك به أحداً . وخلافه مع الله أمر لا يعنيني .

- أطلب إليك أن تزيل هذا الطفل .

فأومأت برأسي أن لا .

وأنا لا أعاند لأني جدّ .

المهم ليس هنا .

أين المهم؟ أنا لست الله الرحيم وما كان الله ليدفعني إلى رفض عملية إجهاض . والله لا يعنيني مباشرة فقد اعتدت أن أردد أني به آمنت لا بعدالته . لقد رأيت كثيراً من الشقاء بل ومن الأشقياء . وما كنت لأقاضي الله وإنما أتبين الأمور . . .

ما أجمل فاضلة!

عندما أومأت برأسي لها الساعة أعني أني أرفض «أن أرحّل» هذا الطفل شحبت . وكأنها تلومني في دين هي وحدها فيه المدينة . . .

ومع ذلك ، ومع ذلك لو كان صبياً ، لو كان ، تعبير مضحك لو كان صبياً . . صه ، يوجد شيء يتحرك . أنا ما عدت موقناً بأني لست جد . لو كان صبياً .

أقول ، لو كان صبياً ، اصغي إلي يا فاضلة ، اصغي إلي جيداً والخير في شعرة من أهدابك المعقوفة . أقول ، لو كان صبياً ، أقول يا فاضلة : إن البراكين جميعاً تزخم حتى فوهاتها! يا لعظمة وراثتي المقدسة! لقد حلمت دائماً في أن أحلم ، أي في أن أكتب . أنا ولا شك طبيب مجاز . كنت أكون كاتباً بسيطاً . ولم يشأ الله أن أكون الشاعر . إن يديّ لتحسان بالراحة وهما تمسكان بالمبضع . أما القلم فيعيقهما . لقد حلمت دائماً بأن أحلم دون الحاجة إلى مبضع أو قلم . ففشلت في عدد من العمليات . كل جرّاح يفشل في عدد من العمليات . أما الشاعر فلا يمكن أن يفشل في قصيدة إلا وأن يكون فاشلاً . أنا ليس لي الحظ حتى في أن أكون فاشلاً . أنا جرّاح فحسب . أنا أدري أن هنالك شعراء ، شعراء هم شعراء المرضى والمشافي . عندما يفعت أثرت بي أطروحة زميل ، طبيب داخلي له عيناً

بحّــاثة . «إلـى الأطفــال المرضى عن فـرلـين» . والآن ترى تلك الأطروحة في شارع مدرسة الطب وهي تصفر وتملّ في واجهة كـتـبي . أما الناس فـينظرون إلى صور النجوم وهي تتـبـدل كل أسبوع في سينما في الحي اللاتيني . .

لو كـان صـبـيـاً لقـالـت لي البـراكين الثـائرة في بطنك وصدري ، اصغي إلي يا فاضلة : العالم الصغير له عينان زرقاوان ولقد حققت الصحراء قلقها العظيم .

وكنت أزيد : من أجل الليمون الذي يعطر الثلج المسحوق في قداح شوارع بونة الصغيرة ، من أجل البيض الملون ، وأفراح الأطفـال في شـارع العـرب ، من أجل أفـلام طرزان ، وأغـاني محيي الدين ورايمون ، من أجل الأطفال الذين يشترون الفستق ويذهبون إلى الملعب ، والبرد في أيديهم وفي طاعيتهم ، من أجل الأطفال الذين يحلمون بأن يصبحوا كباراً ويدفعهم عن أن يكبروا كساح تاريخي ، أن ابنك الذي بات رجلاً يا فاضلة ، من أجل الأطفـال وكـؤوس الليـمـون الصـغـيـرة والطرزانات والفستق ، من أجل الرجال سيعيش ذلك الطفل .

***

لو كـان صـبـيـاً على كل حـال . . . إن البـراكين المتـعـبـة تستيقظ دائماً عندما تموت الصخور . .

٧

أنا لا أريد ذلك الطفل . . .

فاضلة تريده بعض الشيء .

بعض الشيء ، لا بل كثيره ، ومن كل جوارحها . إن المراة تضن بطفلها . لكنها تخشى غياب الحب المطمئن ، الحب الذي يدفع العربة ، يقطف البندق ويقلق إذا ألمت الحصبة . .

أنا ألعن ، أنا أرفض الإجهاض لأنه من عمل الفكر .

إن الطفل ليس من عمل الفكر .

فاضلة لا تريد ذلك الطفل . كان بودها لو تريده . وهذا أهم بكثير ، بل أسوأ .

***

كانت تغنى أغانٍ في شارع الفيوكولمبييه . فم الميترو . . . بائعة صحف . . شارع رين . وعالياً إلى اليسار أبراج سان سيلبيس البليدة الملكية . وفاضلة تضع محفظتها على بطنها الصغير وعمر يرفع نظارتيه وأنفه .

فاضلة لا تحدق بوجه عمر منذ ما . . .

منذ ما أحبته . منذ ما تحابا وعمر يتألم جميعاً .

- بادرته قائلة : ألا تعلم أني سيكون لي غلام .

لم تقل :

سيكون لي ابنة .

ولكنها قالتها وكأنها اكتشفت قائلة :

- أنا مريضة بعض الشيء .

وكأن عمر لا دخل له بالموضوع . لأنها لم تتعود الحب .

الفوضى هي وحدها نظرية . لكن عمر منذ ما تنبه إلى فاضلة أخذ يبسط كل القضايا . كان ينتظر الصباح . يعمل بالسياسة : ينتظر طفلاً .

أخذت فاضلة بيده وكأنها تريد أن تجعل بينها وبينه بعض المسافة :

- أنا أنتظر طفلاً أتسمع ، أنا انتظر طفلاً .

وكأنها تلومه من أجل ذلك الطفل .

لأنه ، أي الطفل ، ما زال صغيراً ، ما زال صغيراً كذويه .

إن معنى الطفل أنه مأوى الأطفال الذين لا مأوى لهم ، إنه يعني : أنه سيرى اليتامى وأشياء أخر . . .

لقد حلمت فاضلة بحب سياسي ، وقد جهلت أن كل حب سياسي لأنما يجب أن نعاني الحب كما نحب . ومن

أسف بل لم الأسف ، إن حب البشر هو دائماً كذلك . . .

قرر عمر أن يجيب وهو ينتقل من خبر لآخر :

- أنت تنتظرين طفلاً وأنا لدي مذكرة توقيف . . .

تبدل شارع الفيوكولومبي ، فلم يعد شارع الفيوكولومبيي وليس طبيعياً أن يعكر هذا الحب طفل ومذكرة توقيف .

في البار الصغير الذي يصغي للمترو ولبائعة الصحف ألحّ عمر على فاضلة أن تأكل بقية عجتها .

فاضلة تسعل وهي تأكل . وتبكي أيضاً . إن شقاء الأطفال يقاس بهذه الكمية الضخمة من الحيرة .

- قليلاً من الخبز يا ولد إذا سمحت . . .

لن يعرف النادل أبداً أنه يطعم شقيين .

في شارع الفيوكولوسبييه ، وسط خضمه الزاخر ، أخذ الطفل يولد كعمل جريء .

***

٨

روت لي فاضلة أغنية حب . أغنية عن الحب والموت ، وكتاب تاريخ انقلب إلى رواية بوليسية .

تساءلت هذا السؤال :

- أكانت تحب عمراً لو كان سويدياً؟

وابتسمت أقول لنفسي :

- لو كان سويدياً لما كان اسمه عمراً .

أنا أفهم ابنتي . إنها منذ الآن ابنتي ، لقد أصبحت ابنتي . أنا تغيظني البطولة . أنا لا أفهم الموت بله الأبطال . لقد بات الأبطال عديدين . البطل هو من ارتضى الموت . وليست القضية في هذه الأحوال أن يعيش المرء أكثر مما ينبغي له . بل ليست في أن يعيش . إن المرضى ليسوا أبطالاً لأنهم يلجؤون إلى الأطباء . إذن كل البشر مرضى .

ولكني أحسد الأبطال .

إن الأبطال لم يبلغوا أبداً العشرين من عمرهم . شبابهم

أبدي لأنهم يقضون جميعاً فتياناً . إنهم يتحدّون الزمن .

فاضلة تغسل شعراتها . ولا أجرؤ أن أقول شعراتها .

الرومانتيكية عفرة ، ريشة زينة وحب ، ضربة رأس على حائط أو على حجر ، جميل هذا جميل جداً .

إنها تردد دائماً :

- لا أستطيع أن احتفظ بابني في الظروف الحالية .؟

ولاحظت هذه الـ : «لا أستطيع أن أحتفظ بابني» ولاحظت الصوت الذي لم يكن منسجماً مع موسيقاها الداخلية وقذفتني فاضلة ، بشكل غريب وهي تقفز ، بكلام مبهم -الكلام المبهم يا إلهي هو طريقة صحيحة للحديث- باختصار ، قذفتني فاضلة بقولها .

- إنك لم تتبدل كثيراً .

إنه وهم واحةٍ وهدنة في حرب وصحراء لم أعلنها أنا . .

ثم أفسدت كل شيء قائلة :

- صحتك حسنة .

ولا بد لي من أن أسجل في هذه اللحظة إن فاضلة حسيرة بالنظر .

***

٩

أنا سعيد بأني جبان حدد الخوف والوسواس حماستي . إن الشجاعة في صفائها الطبيعي نفي للشجاعة . وما البطل غير جبان لا يأبه للنتائج . والبطل لا يعلم غير تبرير نفسه . ولا توجد علاقة مشتركة بين البطل والبطولة . إن القلب وحده هو بطل ، كنز . إني رغم صدق المحاولة لم أستطع إيجاد علاقة بين الكرم والفعالية . أنا أشتغل ، أعمل ، وُجدت من أجل الآخرين . أعنى بنفسي وأنا أعنى بالآخرين . لقد ارتضيت منذ بعيد أن أحسب حساب الآخرين . أقول : ارتضيت ، وأنا مع ذلك أحب الآخرين ولكنهم يزعجونني كما يزعجني وجهي في المرآة ، في خريف أيامي وأنا أحلق ذقني .

لا يمكن للمرء أن يكون بنفس الوقت بطلاً وقديساً . مع أنه يجب أن يكون بنفس الوقت بطلاً وقديساً . ولهذا السبب كان لا وجود لهذا ولا ولا لذاك .

بله أن القداسة لا يمكن أن يكون عمرها عشرين أبداً . إن

الشباب يتعبني لأن شبابي لم يحفل بما يعزّي ماضيّ ، ويعزيني في ساعات الذكرى . كان شبابي بليداً ولكنه كان شجاعاً .

كان بليداً على كل حال .

ستقول لي فاضلة . . . لا قيمة لما تقول فأنا لا أهتم به .

ستقول لي طبعاً فاضلة :

- يجب أن يذهب هذا الطفل . . .

أنا أعرف الأطفال الذين ذهبوا . كانت تفوح منهم رائحة محق جنس بشري والتيفوس . أنا أعرف الأطفال وعلمت أنهم كانوا يرون أبعد مما نرى . نحن الناس الصغار .

اشتريت صحفاً .

١٠

ولكن لا يا صغيرتي ، سيضاء هذا البيت . أنا أعرف العرب ، الأحجية الوحيدة في العصور الأخيرة . الأمل يا فاضلتي هو السبيل لإنكار البله والبلاهة . الأمل هو نوع من الدفاع الذاتي ضد العبث . إنه طيّب كطفل ينهد إلى الوضوح .

أنا أعرف أن فاضلة لم تخلق للمسبة . فاضلة حبيبتي إنها حسرات الفالس ، الفالس اليقظان ، الخبيث ، العاشق حول الجوقة المنطفئة .

ما أعجب هذا العصر!

إن عظم السّاق لأسهل علاجاً من القلب والحياة تشتد مقاومتها في سبيل التافه من حاجاتها والإنسان أكثر استعداداً لطلاب قطعة خبز منه للتغني بحقول القمح . والحرب هي تلك الظاهرة ، الظاهرة التي تقتضي تأمين رغيفها وهي تغني حقول القمح على ألحان مألوفة مقدسة .

البنّاء يصفر نغماً وهو يبني بيتاً قد لا يسكنه أبداً . رأيت

في غمرة أنوار الهضاب الكبرى البيضاء الجزائرية فلاحين يحصدون ، يغنون ومع ذلك ستحول خبزتهم سوداء . إن العامل الذاهب في فرنسا ، إلى معمل رونو لا يشتري فطيرة من محال الحلوى اللامعة ، لأن هذه الفطائر لا تذكر الخبزة السوداء .

سيخرج من كل هذه التناقضات عالم جديد ، ولكن هذا المستقبل يخيفني كشرط قلب . إن المستقبل لا يبعث على الطمأنينة . عندما أفكر بمريض وأقول : «لو عاش الليلة» ، فإنما أعني أن حظ الليل بالقضاء عليه أقوى من عنايتي .

وتنتابني المخاوف ذاتها عندما أفكر أن فاضلة ستكون سعيدة في الغد . إن الطمأنينة تنتهي عندي في الحاضر . وأيضاً . . إن البائسين هم فاشلون لأنهم يتعللون وكأنهم طلبة شقيون يؤكدون قائلين : «سننجح في الدورة القادمة» . إن ظلم القدر هو في عدم مجيء المواقيت في حينها .

لن أقول مؤكداً بصوت عال :

– سيضاء هذا البيت .

أنا أكتفي بأن أرجو ذلك لفاضلة وعمر ، لكل فاضلة وكل عمر في هذا العالم .

– أنا جد شقية . . .

كنت على انتظار هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن .

ومع ذلك تحب فاضلة عمراً ، ومع ذلك يحب عمر فاضلة . فيما مضى كانت أحزان الحب تنطلق من القصائد الهلهلة ، أو تنافر في المزاج ، من السدود العالية ، أو حواجز لا ترقى ، من ميل ذي طرف واحد أو شاعرية لا يشارك فيها الحبيب ، من حكمة غير متبادلة ، أو انتساب إلى عرق آخر ، من تباين طبقي أو اختلاف في الدين . كانت فيما خلا أحزان الحب صراعاً أكثر منها خلافاً . فاضلة تحب عمراً . عمر يحب فاضلة . إنهما متحابان ، ذلك من أحزان الحب .

- أجل ، أنا جدّ شقية .

هذا واضح يا ابنتي العزيزة . إنه مخالف للطبيعة ، إنه لعهر أن يكون الإنسان سعيداً إذا كان جزائرياً ، وبتعبير أبسط إذا كان له قلب . أنا أعرف جزائريين سعداء ولكن هؤلاء فقدوا الذاكرة . إنهم قلة ولا شك ولكني أعرف بعضاً منهم على هذه الشاكلة تند عنهم أمائر مركب النقص المجهولة . يا للبؤساء يتكلمون عالياً لا يأبهون لأمر . انظري إلى الحمير كيف تبتسم . لقد تأكل وبرها وتقرّحت جلودها ولكنها تبتسم ملء خياشيمها سعيدة بنسبها الحائر ، سعيدة لأن ابتسامة الخيشوم المضحكة تدل على رضى عميق ، لأنها تأكل العكوب . إنها سعيدة - حتى عندما تنهق بالفرنسية .

١١

ثار في خيالي حلم معتوه أن أؤرخ فاضلة . أنا أجهل الكتابة ، من هنا ينشأ ظلمي . ولكن الشقاء يبدع الشعر على طريقته ، والشعر كقفازي ، على قدي .

لأن فاضلة والحق جميلة .

إني لأشمخ بأنفي ، أني بت أباً لها . الحرب قائمة . أعلن باعة الزهور الحرب . الأزهار لا تحارب وإنما تُجعل أكاليل موتى وأغار منتصرين .

علمت أن عمراً في المدينة الصغيرة الدائمة النّعاس . شرحت لي فاضلة أنه يسكن الآن عند صديق وأن هذا الصديق لن يقدر على إيوائه طويلاً لسبب رأت أن لا فائدة من إعلانه لي .

– إنه لن يكون في خطر عندك فأنت غير معروف ولا مسبّة تلصق بك .

تظاهرت أنها تأخذ لفيفة ولكنها رأت عيني . فمددت لها

المنفضة باسترخاء والخطوة الأولى يخطوها المرء بلا حماسة .

- سيبقى عندك حتى يستطيع الرحيل إلى مكان آخر .

أين هو المكان الآخر؟ أتخيله أرضاً سعيدة . أرض العبيثران الهادئة . أرضاً لا خوف فيها . تمرع فيها قصة خرافية عن البستانيّ عاشق السّلطة والتوابل أمام ميزان أعدل من العدالة .

والحق أن العيش في مكان آخر جميل . الموت فيه جميل . ولن يبلغ الإنسان شأوا عظيماً ما لم يدرك أن موته في غير سريره ، في «مكان آخر» هو شيء غير سويّ .

سألتني فاضلة .

- أخائف أنت؟ وما تخشى؟

ولكني كنت في «مكان آخر» لا أصغي وشحنتان من المغناطيس تتناوبان فيّ بذات الوقت . وأنا أعرف جيداً كيف لا أصغي .

أنا غارق في وحدتي حق لأجهل كيف أصغي . البديهيات تزعجني ويبدو أن ذلك تشويه مهنيّ . عندما أجدني أمام مريض لا أكلمه أبداً ، أستجوبه فحسب وليس ذا بمحاورة ولا بحديث . إن المشقة تريد التحدث . عندما يقول لي المريض :

- أحسّ بشيء هنا .

لا أستطيع أن أحسّ بإحساس المريض . بل أغيب معه ،

أنتظر أن يقوم هو بمهمة الطبيب وما أكتب الوصفة إلا بإملائه .

إن الناس يستدعون الطبيب كما يستدعون أي عامل آخر ، والأمـر بسـيط فـلا بد من أن تشـفي نفـسك قـبل أن تشـفي الآخرين .

فاضلة تحسّ هنا أمراً ما . ابنها أولاً ثم عمر . والجزائر قرينة لفظ ولوحة لون . إن الوطن هنا هو الدافع والفرصة .

رسم ثغر فاضلة مرارة . راحت أسنانها تتراقص وهي تلبس «تيوراً» رمادياً مشدوداً على الخصر .

صـدار من النايلون الأزرق ، بوبر أبيض يكسـو جـذعـهـا السخي . فأرى أكثر ما أرى ثغرها الذي يريد أن يكلمني حي هو ذلك الثغر .

***

إنه نصف الليل الآن في المدينة الصغـيرة . وينبوع أضناه ترديد وحدته . خرج الناس من السينما . يبدو أن البحر بردان .

عمر يتساءل لدى صديقه . عـمر ينتظر . الملعونون دائماً ينتظرون . الأمل يقـضم لجـامـه . أحب الصـبـر الآلي شـبـه الحيواني .

أغرب أمر أني ما نظرت إلى فاضلة إلا وآمنت بالسعادة وما يفعل الشقاء إلا أن يثبت في اعتقادي . عندما قالت منذ لحظة

«في الخارج» ظننت أن «في الخارج» ليس بعداً من مكان . في الخارج إنه الزمان .

- أو لا تعلم ما هذا!

صوت فاضلة جاف يصل إلى حدود الشتيمة ، إلى حدود التحدي .

- أولا تعلم ما هذا! إنك تعيش في فرنسا منذ عشر سنوات ، بتّ تجهل شباب وشيوخ وطننا . لقد رحلت . .

أسمع قرع أجراس يمتد كرداء من خرق . أنصت إلى الينبوع . أنصت إلى ساعة تدق قرب صدغيّ . أنصت إلى سيارة شحن تهدر باتجاه إيطاليا . أنا لا أصغي إلى فاضلة . أفضّل أن أسمع تنفس المدينة الصغيرة الوسنى . أفضّل أن أصغي إلى أسطوانة عتيقة فيما وراء البحر ، في مدخل مقهى وطنيّ ، مقهى وطنيّ أعرفه جيداً تحرسه تينة بنت مائة عام في القرية التي أعرفها جيداً . . . ماذا حدث للقرية ، ما حدث للمقهى الوطنيّ؟ علمت من الصحف أن القرية تألمت ، تألمت كثيراً . ومع ذلك فأنا قانع بأن التينة باقية ، وجوداً لا يفسر ولكن الحمائم رحلت .

- أجل . أنت ما عدت تعرف الشيوخ ولا الشباب في وطننا . . .

فاضلة تقول رغم كل شيء في «وطننا» . إنها إذن لم

تطردني تماماً من مجتمعها . أهي زلة لسان منها؟ أنا أحب الهفوات .

- لقد اعتزلت بإرادتك . وفي هذا الزمن! . .

أرى في عينيها تقويم الأحداث . أنا أقرأ جيداً في عيني ابنتي . وأقرأ غير ذلك الصحف . ومن أجل هذا أقرأ جيداً في عيني ابنتي .

تردد صوتها قليلاً ثم قالت :

- لقد ترك المدينة الصديق الذي يقطن لديه عمر . ففكرنا عندئذ بك .

ما ألطف أن تفكر بي! ومن هو «نحن»؟ عمر وأنت أم الآخرون؟ أنا لا أحب أن يفكر الناس فيّ في المناسبات الكبرى فقط . أنا افكر في الآخرين كل يوم . عندما أشعل لفيفتي الأولى أفكر بالآخرين . عند الحلاق أفكر بالآخرين . أفكر دائماً بالآخرين . أنا لا أعلم إذا كانت إنسانيتي تبلغ حداً لا تبلغه صداقتي الصامتة ولكني أؤمن مع ذلك أني أحب الآخرين مخلصاً .

أنا أحب الآخرين ولكني شخت . ولا ذنب لي في الواقع إلا عمري . وإنها لجريرة أن يشيخ الإنسان . نوع من الخيانة ، من الإهمال . لقد تركت رومانتيكيتي في زاوية من زوايا تجربتي . إن الريبيين والمتشائمين يزعجونني كالغنائية الغارقة

في غبطة سهلة . وليس للبطل وقت يضيعه في تبديل ذاته . البطل إنسان وما كل إنسان بطلاً .

أنا أعرف كل ما في التجربة من مزعجات للجرأة الحديدية والحماسة العظيمة . أنا أعرف تحدي وإهانة الشعر الأبيض لجبين الطفل الرضيع . الثلج الطاهر؟ يا له من مزاح! شعري أبيض لسبب بسيط أن ماء جافل الزمن بدّل ألوان تفاؤلي . أما الحكمة فليست من ذلك في شيء .

دفعت فاضلة على مكتبي محفظة صغيرة خضراء ، ظننت أنها ستفتحها بعد هنيهة ، ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا .

- أتعلم ، عمر شخص ممتاز .

أنا لا أعرف عمراً . أنا على استعداد لأن أصدق أنه «شخص» ممتاز جداً كما قالت .

لو قالت لي فاضلة :

- عمر رجل ، شاب طيب القلب لفهمت هذه الجملة . أنا أفهم الكلمات البسيطة ، الكلمات التي ليست كبيرة ولا ضخمة . إنها إشارة من الزمان . وقد جعل الزمان على صدغي أذني دقيقة . أنا غير مراء ولا غزير الصور أو متحذلق . بل ولست ذكياً . ولكني أعترف أن الشقاء يجعلني أكاد أبتسم عندما أعتلي على ذاتي وكيما أعبر عن ذلك تضطر الكلمات لأن ترتدي حلة الأبّهة المسرحية . أنا لا تهيجني شخصياً

الأشياء الضخمة . أفضل عليها اللانهائي في بساطته اليومية . إن أينشتاين لم يعلمني النسبية ولكني أملك في حنايا قلقي الخجول كأي كائن آخر قصائد لا تنام .

إن المرضى الذين ينتظرونني ينتظرون مني القدر . يا للمساكين! أنا طبيب فقط ، بائع حسن نية . وليست كل نار نور الله وليس بياض ردائي الطهارة السماوية . عندما أغسل يديّ وألبس قفازي وأقول بصورة آلية «هيا الثاني» ، عندما أنحني بنظرة واحدة على المخدّر ، عنما أحوّل مطرزاً من أجل خلاصه ، خياطاً صابراً أحاول جهدي في أن أحدد العطب . لا قيمة لأي شيء في مهنتي إلا للحياة . أنا صانع عجوز أحسّن الآلة . ولديّ إجازة سوق لصحة الآخرين . وصناعتي هي على المستوى الذي تجلى عليّ فيه الإحسان .

أنا لا أحب أن أُشتم في عملي . ولا أطلب أن يوثق بي أبداً . أنا أحاول ألا أكون خجولاً .

أنا لست مديناً بشيء لطبقة الأطباء . لم أقسم اليمين أمام إيبوقراط وإنما أمام الخوف من السخر بي . ولا يسخرني لقب أو أجر . أنا أمثل قوة جماهيرية ، يشهد على ذلك كتفاي المحدودبتان . ليس في ذمتي حساب أو دية إلا لشعري الأبيض . إن شعري هو ضمانة إحساني .

أنا طبيب لأني عجوز . أنا طبيب لأني أحب العائلات .

أمنح الفرح للعائلات . أشدّ أزرها . يجيئون إليّ يشكرونني لأني رددت أحد أفراد العائلة وفي شيخوختي ، هكذا ، نزوع إلى الربيع . إن أية غابة لم تبلغ هذا الجمال . إنّ أغانيّ المتأرجحة في جبين العالم ، التي أبذرها في الخطر ، هي مع ذلك خير الجزاء لي . . . أوراق خالدة في تربة محافظة ، لم تبلغ جمالها أية غابة إلا في اللحظة التي تنطفئ فيها أو تتوالد . . .

ورغم هذا تجيئني هذه الجميلة الشيطانة تسألني : «أن أرحّله»!

- ولكن تكلم! قل كلمة ما!

صالبت يديّ على صدري ونظرت إلى ابنتي . أشعلت لفيفة . يبدو أني وقح . كانت عيناها تأمرانني .

- ولكن تكلم . قل أي شيء!

وعلت نبرتها .

لا ترتعشي يا صغيرتي ، أنا لست عدواً لك .

طبيعي أن يثور الابن . أنا أعجب بالثورة بله الانطلاق . ولكني لا أغفر الكلمات الكبيرة .

لأن المحاكمة لن تمتد أكثر من ذلك . أنا أخاف مناقشة الحساب .

أفضل الحلول .

١٢

يجب أن نؤوي عمراً . . .

أوه ما هذا! يا لهذه الثورية السيئة التهذيب!

كانوا يقولون في زماني :

- إذا سمحت يا أبي ، يجب أن نخبئ . . .

ولكن أكانت الثورات في زماني تترعرع في حضن المجاملة؟ إن شيخوختي توجعني .

- ولكن تكلم . . . قل شيئاً ما!

ما زلت أصالب يديّ على مكتبي . انظر إلى ابنتي . نهداها الصغيران مدوران .

الدكتور كوست ، الدكتور كوست هو صديق أبدي . كثيراً ما أفكر بالدكتور كوست . كان لونه أصفر .

- يجب أن نؤوي عمراً . . .

هنالك تعابير أمقتها . إن اللهجة العامية يمكن أن تكون اختصاراً للفكر . لا تخلو من الهجانة ، خاصة في فم امرأة .

- إنك مدين لي بهذا على الأقل!

لقد اجتازت الوقاحة حدود الشتيمة . هاك مثلاً أنا مدين لك بذلك على الأقل! إن في التعبير العامي صدقاً يتبين بمرارة : لم يعد هنالك طفل . . .

جيل ينظر إلى جيل بلهجة البراز المستحيلة . جيل يكلم جيلاً . فيصمت جيل . لأنه لا يستطيع إلا أن يصمت . لقد اعتلت عليه الأحداث . جيل يحاكم ويحكم على جيل . أنا أفهم ذلك تماماً . لقد جلس الخريف على مقعد المتهمين وما عاد لديه غير الذكريات . ومع ذلك هنالك شيء يضايقني ، شيء لا أفهمه . هذا الجيل الذي يتحدث عن المستقبل يغرق نفسه ، لأنه يحدد نفسه ، لأنه يتوقف بإرادته .

الإجهاض هو المأزق ، هو الشارع المسدود .

إنما يجب أن نلد أطفالاً في الظروف الحالية . إنهم التحدي الذي نجأر به .

إن شيئاً ما لا يوحي لي بالطمأنينة في هذا العالم ، الذي يتراوح بين الجنون والحبل ، غير وجه طفل .

***

١٣

في صيف ١٩٤٠ كنت طبيب كتيبة مجنونة . لماذا سميت هذه الحرب «بالحرب السخيفة»؟ إنها لم تكن أبداً سخيفة . إلا إذا كانت كل الحروب سخيفة . بالاختصار كنت طبيباً في جيش مسعور . كنا في خنادق عند قرية صغيرة إلى الشرق . واختلط الآمر بالمأمور . كنت أقوم بالعمليات ليل نهار بوسائط تسميها اللغة الفرنسية الساخرة الحظ . كان قذف القنابل لا ينقطع . وضعت هوائي الراديو في مدرسة ذات صف واحد . كتب الأستاذ على سبورته جملة لم يخطر لأحد أن يمحوها : «إن راحة الضمير هو وسادة حلوة» ، وكتبت الملاحظة التالية تحت المثل : «مثل روسي» .

لم يبق سليماً من هذه القرية -وقد سقطت قنبلة في ساحة المدرسة أطاحت بالقسم المسقوف -لم يبق من هذه القرية إلا تلك المدرسة القروية الصغيرة التي بقي على جدار صفها صورة الماريشال ليوتي الذي دشّن بناءها بصفتيه ،

كمواطن من اللورين ومشير فرنسي .

مكنني ذات يوم مرضاي وقذف القنابل من فترة راحة قصيرة فقمت بجولة قصيرة في القرية التي غادرها سكانها . لقد تركتها حتى الحيوانات وما كانت القرية غير فاجعة . كان يضطجع بيانو أمام جدران البلدية . إن في الشقاء شيئاً غير واقعي . المقبرة نفسها لم تكن في مكانها وما كان مظهرها ليعبر عن فكرة السلام التي توحيها عادة . ورقص جنائزي يعقد السرو إلى التيجان ، أما برج الكنيسة المجاورة لها فقد انهار بين القبور المبقورة البطون ويبدو ديكه وكأنه يرأس حفلة لنوع من الرؤيا الدينية أجهل كنهها .

ومن السخر الغريب أنه كانت توجد لوحة إعلانية كتب عليها : «تذوقوا خمور اللورين» .

هنا أيضاً كان العبث يقود الحفلة .

وتابعت نزهتي الحزينة . وأنا أقول لنفسي إن الحرب هي أعلى ضلال البشر . وبعد أن خرجت من القرية ، التقيت فجأة ، حدّ نهر مشدوه من جريانه الخالد ، فلاحاً شيخاً يعمل في حقله . كانت مزرعته تحترق . كان ضخم الجثة قويّها ، شعره أحمر تقريباً ، يبدو وكأن له سبعين عاماً . عندما اقتربت منه رفع رأسه قليلاً وكأنه يعيش في عالم آخر . لم أستطع دفع نفسي عن سؤاله لماذا يستمر في زرع بستانه ومزرعته تحترق

والألمان واصلون بين لحظة وأخـرى فلقـد تلقـينا نحن أمـراً بالتراجع .

فنظر إليّ غـائباً ، ونظر إلى مزرعـته التي تشتعل ثم انتهى إلى أن قال لي :

ومع ذلك يجب أن ينبت شيء هنا . . .

١٤

رأيت الدكتور كوست في صعوده . لا بد وأن يغسل يديه قبل أن يجلس على يمين الله . هذا التعقيم ضروري . رأيته في مصعد خرافي . إنه مبالغ في دقته ، اجتماعي تقريباً :

- أقدم نفسي ، أنا الدكتور كوست .

وانحنى الدكتور كوست وهو يفتر عن ابتسامته الشيطانة الطيبة . لقد تقدم إلى الله بثوبه الأبيض ويداه تضبطان إيقاع نشيد ترتله السماء .

أحسّ بقليل من الحمى . فاضلة تغضبني . أشعلت لفيفة . لتفعل ما تشاء!

- عندما يعود السلم سأتزوج عمراً ويكون لنا أطفال ، عندئذ نستطيع أن يكون لنا أطفال . . .

غريب! سأقوم بالخدمة العسكرية . . . وأبحث عن شقة . أدّخر الدراهم . . . وأكون مصنفاً في وظيفتي . . .

وبعدها أتزوج!

أعترف أني لا أحب هذه التحفظات ، هذا التعقل . ذلك لأني ، على ما يبدو ، لم أشخ تماماً .

إن الحب الذي يناقش لا يوحي لي بأية ثقة . ولا حقيقة لشيء في هذه القصة إلا للطفل . وتجهل هذا فاضلة . لقد دلني فلاح اللورين الشيخ على ما يجب فعله . كان شجاعاً كأنه قوة خالدة في الانهيار ، تأكيد على الحياة ، انتقام من الموت ، ابتسامة هادئة في الفوضى .

إن فاضلة لا تعلم غير الشتيمة . إنها أسهل الطرق كيما تملي أوهامها . إن المنفى لا يولد منه غير مرارة بشعة .

إلا إذا عملنا حقيقة .

١٥

لقد أحببت الليل لما يحمل لي من وحدة وتفكير . ولكني لا أحب الظلمة في عيني ابنتي . إن الليل لا يشيع الظلام في نفسي . الليل ، إنه النظام الذي يعود إلى الفكر والمدينة . إنه هدنة البشر الطيبين .

إن الليل بالنسبة لي هو أسطورة جنّ . كنت أحب أن أتأمله وهو يأتي تحت تينة القرية ذات المائة عام . كنت أحب أن أراقبه ، أن أصل إلى سره . كان جميلاً . كنت أؤمن بالليل الذي يبدع الحب والصلاة . وكان الليل ينيرني . لو اخترع أحدهم القمر لأصبحت ريبياً . لقد تذوقت نور قمر أحزاني . إني أستمع إلى ابنتي هذا المساء . أنظر إليها أكثر مما استمع . وددت لو أقاسمها مشكلتها . وددت لو كان لي عمرها .

أنا لي عمر الليل .

عندما أكون مع ابنتي أصل إلى ذروة التأمل في نفسي .

أنا أخترع حناني حتى لا يلمّ بي البرد . أحيط نفسي

بالصمت والليل . إن الشيخ الذي أصبحته لا يحب التفاصيل . وما التفصيل إلا مسألة خطأ .

سأذهب غداً إلى المستشفى ، غداً صباحاً . وسأرافق بعد الظهر الدكتور كوست . يجب ألا أنسى زيارة مدام سيمون الطيبة . ليست مدام سيمون مريضة ، إنها عجوز . إن عملي يقوم على العناية بالناس أكثر من قيامه على شفائهم . سأذهب بعد ذلك كي أرى هل عزف الخريف عن مزاعمه . سأذهب كي أرى هل تعب البحر من ترداد نفسه . سأطوف بوحدتي بين الأوراق الميتة . وأحتسي فنجان قهوة عند «ليون» . وأسأله عن أخبار طفله . وربما ذهبت بعدئذ للسينما . إن نتيجة الحساب ستتم في داخل الأوراق الميتة .

- ولكن تكلم ، قل شيئاً!

لقد أعطيت لساني للقطط التي أتخيلها على سطوح المدينة الصغيرة . للقطط ، المقطعة أشباحها النقية كخيالات صينية على شاشة أفق هادئ في الإيبينال .

- ولكن تكلم ، قل شيئاً!

الدخان أزرق ، إن الدخان لعبقري .

- مهم جداً ألا يقبضوا على عمر . . .

ألا يقبضوا عليه . غابات سولونيا والطواويس . الحرب لم تعلن اليوم . ولكن الصيد بدأ اليوم .

– سيعقد هذا الولد كل شيء .

بشرفي إن لهذا الطفل قيمة كالقدر!! إنه هو الذي يصنع إذن التاريخ .

إنك تتكلمين يا صغيرتي عن هذا الطفل كما لو أنه ولد . إنه إذن موجود . لقد ولد إذن في واقع بطنك وفي بطن التاريخ . وماذا يمكن أن يعقدّ هذا الطفل؟

إن الطفل على العكس يبسط الأمور . إنه يعود بالفكرة إلى حدودها الأولى . إنه ينمو ويجعل الأشياء تنمو .

عندما تصمت فاضلة أسمع همهمة الليل . الخريف يسد ثغرات العالم . يبدو عاقلاً . وأنا أعلن أنه يوجد على بعد خطوتين من قلبي ، وراء مكتبي ، وراء البحر ، ربيع صامت توجعه سنواته العشرون .

يا ربيعي الصغير المسكين . . . أحب لو تنامي في جوف حناني . أحب لو أخترع لك القصص البسيطة . لو أدفنك بنعومة يا حبيبتي البيضاء كالثلج . يا ربيع شبابي الصغير ، اطفئي لفيفتك وتعالي قولي إلى أبيك أنك تحبينه ، وإن بك رغبة للبكاء . تعالي ولنسأل الليل عفوه .

ابتسمي يا فاضلة ، ابتسمي لي يا ربيعي الصغير المسكين . ألا تحسين بالدفء في أحشائك ما دمت تنتظرين طفلاً؟

- قد يعقّد هذا الطفل كل الأمور!

إنها فكرة ثابتة . يمكن أن «نرحّل» طفلاً . ولكن لا يمكن أن نرحّل فكرة .

- إنك تفهم . . .

أنا لا أفهم شيئاً يا ربيعي الصغير . أنا أتألم من أجل ربيعي الصغير .

كنت أذهب فيما خلا إلى دروب «البوطالب» كي أستعيد الذكريات . إن خير ما فعلته في حياتي أني كنت أفكر أحياناً .

ولقد بدأت في «البوطالب» . يخيل لي أني كاذب لبُعد الشقة بيني وبين ذلك . إن أكثر ما أذكره طيور اللقلاق ومدرسة بيضاء .

لقد حلّ دائماً بيني وبين ماضيّ مدرسة ما . أنا أذكر اللقلاق والبزاق . مازحني أحد معلميّ مرة وقال وهو يبتسم :

- انتبه إلى حيوانك الخيالي .

إن اللقلاق والبزاق يمثلان بالنسبة إلي مشهداً يتسم بدوام هادئ خالد . هذا يستمر برقصة وذاك يلتصق بالصخرة .

اللقلاق والبزاق ، ومعاصري ، ورفاق دراستي . . .

كنت أحدثك عن ذلك يا دكتور ، حدثتك طويلاً عنه .

يا إلهي كم كنت تحسن الابتسام ، كم كنت تحسن التعلم .

كنت تظن أني من أولئك الذين يحسنون الانتقاء .

لقد ترددت دائماً .

لن أزرع أبداً تينة عمرها مائة عام ، إلا إذا أمست ابنتي من جديد ابنتي ، وبدأ من جديد حفيدي زرع الغابات .

أحسّني هذا المساء وأنا أصغي إلى فاضلة غصناً محنياً يشك بثماره .

وما «البوطالب» غير جزيرة في ذاكرتي . إن الماضي يتنكر لي والمستقبل يلعنني . أنا لست موقناً بأني لا أحسد الدكتور كوست ، ذلك الرجل ذو الابتسامة الخبيثة الطيبة الذي كان يقول لي حتى أقف على مقياس إيمانه وتواضعه :

- إن الله الكريم ، يا دكتور قدير ، الله الكريم هو إلى حد ما أنا ، لأني أؤمن به . . .

ربما لم أعرف كيف أحسّ الله وأحبه . ربما تنقصني الثقافة من أجل ذلك . لقد تعلمت متأخراً معرفته . درست علوم السماء الكريمة دراسة خاصة غير منظمة فإذا بي أتقدم للامتحان تلميذاً مسناً ، تلميذاً بحاجة لإعفاء السن في فحصه الأخير .

- هذا الطفل يعقّد كل شيء .

إنه لأسهل أن نصنع الثورة من أن يكون لنا طفل .

إن الأعصاب لا تنطق الآن ، والثورة لا تنطق الآن ، والحقد لا ينطق الآن .

افسح مكاناً ، افسح مكاناً ايها القلب ، افسح مكاناً للحب! ها قد جاء الحب . أنا أعتقد أنه يجب أن نقاتل عندما يكون لنا طفل ، يجب أن نقاتل جيداً ، أعني أنه يجب أن نقاتل من أجل الخير .

أنا أعرف أن كثيراً من آباء العائلات قتلوا آباء لعائلات . أعلم أنهم ما زالوا يقتلون آباء لعائلات . أعلم أن كل هذا الذي ما هو غير دليل على أن الإنسان ناقص ، على أنه ملعون ، وعلى أنه لما يفتد خطاياه . ما هي العاهة التي لم يتوصل إلى الشفاء منها وهو الذي استطاع أن يرسل إلى القمر أشياء ، الذي يأمر الطبيعة كما يملي مروّض متعجرف إرادته على أباطرة الغابات والأحراج الذين استعمرهم .

إن وجود ابنتي لديّ لا يوقظ لديّ التأمل عن الإنسان . إني أفكر بذلك السد الذي أتأمل فيه أحياناً .

١٦

قيد عدة كيلومترات من المدينة الصغيرة ، على مرتفعات ، وعند أسفل تلة كاذبة الغضب ، يوجد سد .

هناك يرتفع البناء متحدياً الجبال . وفي الأعلى بحيرة زرقاء تمتد ناحية الفجاج التي ستملأها قليلاً قليلاً . تعين الحدّ الذي ستصل إليه الأشجار التي ماتت . الحدّ الذي يصل إليه عندما يجيء الشتاء برذاذه الكثيف . وفي الأسفل شلال ينهصر بمجد ماسيّ . لقد ماتت الأشجار التي كان بوسعها أن تعطي عبر القرون الفحم الحجري . لقد اخترع الماء بفضل الإنسان الفحم الأبيض . لقد ماتت الصخور ، غلبها الإسمنت . الصمت نفسه مات . يا للعظمة . ولكن هذا الصمت لم يعد سلاماً . لن أشرح لماذا أعود دائماً لزيارة السد يملأني إحساس بالقلق وعدم الطمأنينة .

نزلت ذات يوم حتى شاطئ البحيرة . وهنالك فهمت فجأة . كان الماء لا يبدي أية ضجة . كان الماء والصمت

يختـفيـان ، لا يغنيـان . وأنا لم أسـتطع عـمـري أن أتنزه على شاطيء الماء دون أن أرغب في الاستحمام به ، وأن أغطس فيه يديّ ورجليّ وفي أن يطفو قارب على قلبي الرومانتيكي . أما هنا فلم أحس بشيء من هذا .

إنها بحيرة صناعية ، إنها نظرة من زجاج في عيون عميان خزفية . إن شيئاً فيها لا ينادي بمجد الله . إن هذه الرائعة التي صنعتها العبقرية الإنسانية لتفزعني حتى ولو كنت لا أعلم كم قضى من العمال وهم يبنون معبد المنفعة هذا . أنا لا أحسّ بالرغبة بالصلاة أمام قاطرة . لا أحسّ بالرغبة في البكاء أو الابتسام ، لا أقدر على شيء إلا على التصفيق . التصفيق دون أية عاطفة . إن الإيمان يبني الكاتدرائيات . والحاجة تبني القاطرات . وأنا طبيب أؤمن بالعلم وبالتقنية . ولكن العلم والتقنية لا يخلقان فيّ اهتماماً إذا لم تكن لهما روح ، أقول روحاً ولا أقول بناء ، روحاً لا حاجة بها إلى مصعد اليكتروني كي ترتفع إلى الجحيم أو إلى الجنان .

لقد وضع المسوخ وصفات كاملة للخراب .

إننا لو تركنا هذا العلم الجليدي يأخذ مداه لاكتفينا بعد فترة من الزمن بأن نضع عشرين فرنكاً في آلة موسيقية فنستمع إلى الصلاة ونقول : لقد ذهبت إلى الكنيسة . أما من أجل صلاة الجمعة فنضع أيضاً عشرين فرنكاً في آلة الموسيقى ثم

نؤكد : لقد ذهبت إلى الجامع . وعندئذ يمكن أن نزعم أن جان دارك قد سمعت أصواتها بالهاتف ، وأن النبي محمد قد رأى جبريل على شاشة التلفزيون . ولكني كطبيب وكإنسان من عصري أقبل العلم رغم كل شيء .

أنا بحاجة للهاتف وللتصوير الشعاعيّ ، والكاوي الكهربائيّ ، ومبضع كهربائيّ . أحيي التقدم دون أن أبالغ فيه . لأني أؤمن قبل كل شيء بالمعجزة .

وأخيراً أرى ألا يوقع المخترع ، أو المعمار ، أو الرسام ، أو المهندس على أعمالهم .

لقد كانوا ، إنهم لم يكونوا إلا يد الله .

الآن أفهم كلمات الدكتور كوست :

– إن الله الكريم ، يا دكتور قدير ، الله الكريم هو أنا إلى حدّ ما . . .

أنا مقتنع أنه سيستطيع ذات يوم الرجل الآلي المتقن الصنع أن يقوم بالعمليات بإتقان كما يقوم بها الدكتور كوست .

ولكن لم يستطيع هذا الرجل الآلي المتقن أن يبتسم ابتسامة صديقي الطيبة الخبيثة .

تلك الابتسامة التي كانت تأتيه من نجمه .

١٧

- أنت تعلم بما أنك طبيب أن الإجهاض لا خطر فيه بوجود مضادات التعفن . . .

إنها تريد أن تعلمني الطب! أنا يقيناً ، يا صغيرتي ، عجوز تافه ولكني أعلم أن مضادات التعفن موجودة .

إني أفكر بتعبير : صانعة الملائكة . وأجده تعبيراً جدّ جميل ، جدّ عاطفيّ ، عادلاً جداً . لأنه كان هناك ، ملكاً على الظلمات الحية المنظمة ، الظلمات الحية التي تخفق كما يهتز الفجر الوسنان المحتوم . يجب ألا نقتل أبداً الصباح الوليد .

أشعلت فاضلة لفيفة . فمددت لها من جديد المنفضة .

كيف يجيز لها عمر التدخين؟ والحق أنا لست من الأمر في شيء . لقد خنت في ذلك أيضاً .

أتخيّل عمر وأعترف أني أود أن يكون جميلاً أصيلاً لأن ابنتي انتقته .

- كان في الصف الثالث من الطب . . .

وفوق كل هذا هو زميل لي في المستقبل!

- . . أهله من تلمسان . . .

أتخيل عمراً وأستسلم . إنه يحب ابنتي وابنتي تحبه . إنه يدرس الطب وهو من تلمسان . ولكن ذلك كله لا يبين لي إذا كان جميلاً ، إذا كان طويلاً أو قصيراً ، إذا كان طيباً أو خبيثاً ، إذا كان يؤمن بالله أو ينكره ، إذا كان مجتهداً أو كسولاً . لقد اكتفيت بأن أخطّ عنه لنفسي ما يسمى اليوم في الأوساط الصحفية والبوليسية بالصورة الآلية . إن ما أراه في هذه الصورة ، ما أريد أن أراه هذه الصورة ، هو وجه محترم متألم لشاب حسن الطوية يحب بلاده كثيراً وابنتي ، شاب كان ينبغي أن يتم دراسته ، ولكن جاءت الحرب . أنا لا ألوم في شيء عمراً الذي لم أره . أنا لا ألومه في أنه يعمل بالسياسة ، وفي أنه يحب ابنتي -رغم أني ينتابني شيء من الغيرة ، ولكن دعنا من هذا- أنا لا ألومه في أنه ترك دراسته لأن دراسته تركته . أنا لا ألومه في أنه أنجب طفلاً لفاضلة . كما أني لا ألوم ابنتي في حبها وفي حالتها . ولكنّي لن أغفر لهما أبداً تفكيرهما بأن «يرحّلا ذلك الطفل» الذي ما دعاه سواهما للمجيء ، لن أغفر لهما أنهما تبادرت لهما الفكرة بأن يسألاني أنا الأب ، أنا الذي بتّ جداً ، أنا الذي كدت أكون حماً أن أرحّل هذا الطفل .

نعم ، إن الأمر لكذلك ، وأنا أفهم الثورة ولكني لا أفهم الإهانة .

وأنا ألوم عمراً إذا أردت أن أكون صريحاً كل الصراحة لأنه يسمح لفاضلة بالتدخين .

١٨

- ولكن تكلم ، قل شيئاً .

الفظيع أني أكلمك يا فاضلة ، إني أجيبك . آه لو كنت تعلمين القراءة بين سطور صمتي ، بين سطور تجاعيد وجهي ، في سجل شعري .

وتفجر الصوت كلولب :

- بلى ، إنني أفهم جيداً ، ألا توافقني على ذلك! ولكنها المرة الأولى التي أطلب إليك فيها خدمة . إذا كنت لا تستطيع أن تقوم أنت بالعمل فجد لي سواك ، وأنا ابنتك ، ابنتك على كل حال . .

وغاصت في مقعدها وصدرها يعلو على نغم غضبها . إنه تهيّج قلبي ورثته عن العائلة ، وأنا أعرف دمي .

- أنا ابنتك على كل حال! . . كم أود أن ابتسم لأن الكلمات تستدعي الكلمات ، لأنه واضح أنه حفيدي قبل كل شيء . ولكني كظمت ابتسامتي لأني أحترم هيجان فاضلة .

ولكنه يبدو أنها حزرت ابتسامتي :

- أرجو ألا تجد في هذا مجالاً للتسلية! . .

أحسست أنها على شفا ذرف الدموع ، ولكنها أشدّ غروراً من أن تبكي . إن شبابها أمنع من البكاء ، يجعلها تخجل من أن تبكي . إن فاضلات اليوم يفضلن إذا داهمهن الحزن أن يدعكن محارمهن الصغيرة حتى تغدو كالكرة . ولكن الإنسان لا يبكي بيديه . إن فاضلات اليوم يشعلن لفيفة إذا داهمهن الحزن . . لو نفرت من عينيك الجميلتين بعض لآلئ صغيرة ، من عينيك اللتين تعتقدان أن كل الآفاق تضمر لهما العداء ، لو نفر بعض نحيب صادق لما شفاك يا فاضلة ، ولكنه يخفف عنك .

ثم قدمت لها المنفضة من جديد . وقدمت لها لفيفة :

- شكراً ، عندي لفائفي!

قالتها بلهجة جافة! حيث يعشش الغرور . وأخيراً . . لن تدخن هذه المرة غليون السلام . ولكن ماذا أرى؟ الأحمر على أظافر فاضلة . يا إلهي! ماذا لو رأى أبي المسكين حفيدته وهو فلاح الجرجورة الطيب الذي آذاه يوماً أن يراني بالبنطال القصير ، وأنا أقطع بلاد القبيلة راكباً الدراجة . ولقد تحدث فيما بعد بذلك شيوخ القرية سنين طويلة قائلين :

- . . إن قديراً بن السيد علي الذي يدرس في فرنسا كي يصبح طبيباً يلبس كطفل رغم أنه بات ذا ذقن وقد بلغ السن

التي يستطيع فيها أن يبني بامرأة .

ولم يغفر لي أبي تماماً فعلتي عمره . وما كان يغفل بعدها عن أن يذكرني بها كل عام عندما أذهب لزيارته .

وفي الحق أظن أني ما كنت أبداً في مكاني . لقد ضللت عصري . والمرء يمشي متمايلاً إذا أكثر من ركوب الخيل . ولقد شاء التاريخ أن أمتطي دائماً جواداً على عصرين ، على حضارتين .

أحمر على الأظافر ولفيفة (غولواز) في فم هذه الجزائرية الصغيرة الجميل ، ولهجة كأنها آتية من سماء اللوار ، وكلمات فرنسية تتحدث بها عن العالم العربي ، وعينان سوداوان فيهما أفق كل آفاق وطننا ، ورداء كالذي تلبسه أي طالبة تتناول القهوة مع القشدة في شارع (سوفلو) وقلب صغير ودماغ صغير يعرف مارتان دي غار أفضل مما يعرف محمد ديب ، وذاكرة تحفظ أبيات أليار خيراً من أبيات كاتب ياسين ، وعقل تدارس بيرغسون أكثر من الشيخ ابن باديس ، ومعجونة أسنان بدلاً من السواك ، فكيف ، كيف نعرف أنفسنا في كل هذا؟

- أو بتعبير آخر تفضل أن أحتفظ بهذا الطفل .

هذا الطفل! وكأنه ليس ابنك . كأنه ليس في أحشائك .؟

وأتمت قائلة :

- بتعبير آخر ، تفضل أن أحتفظ بهذا الطفل ، وعمر من ناحية وأنا من ناحية أخرى لا وضع لنا ولا بيت . ولكن أفصح!

تفضل أن احتفظ بهذا الطفل؟

سأنتقل إلى الاعتراف ما دامت تطلب مني . ما دامت ابنتي تأمرني .

وأومأت برأسي أن : نعم .

وكم يجمّل هذا الغضب!

نهضت كي أفتح النوافذ . لقد بات في مكتبي كثير من الدخان . مثلما في أفكار فاضلة . ولكن المشكلة هي في أننا لا نستطيع فتح فكرة كما نفتح نافذة . أو أن نزيح الغيوم المتراكمة على جبين الأطفال . ثم ننفخ على الغيوم كما في الزمن الخالي . يا فاضلة ، عندما كانت ترضّ أصبعك أو تصابين بحرق فأنفخ على الألم :

- بف! لا تخافي ،لقد ذهب الرضّ!

كان يبقى الرض ولكن ألمك يزول لأني أنفخ عليه نفخة تسوى كل المراهم .

أما اليوم فلم تعد لديّ هذه القدرة يا فاضلة . إن الجرح أعمق ، تهب عليه عاصفة الريح الكبرى فتسمعه . استندت إلى الشرفة أنظر إلى المدينة الصغيرة . وأمامي في الساحة قمم أشجار الدلب تطرب في رقص متعب يعبر عن وحدتها الملكية . وقشور أحجار برج جرس الكنيسة السوداء تلتمع بأشعة زرقاء خجول ، ودقت الساعة الواحدة في برج البلدية .

لقد دامت الدقيقة زمناً أطول مما ظننت . ولم تتحرك فاضلة من مقعدها . وأحس نظراتها على كتفي .

تمرّ من أمام بيتي سيارات الشحن العابرة وما تصل إلى طرف الشارع حتى تنطفئ أنوارها ومحركاتها ، فتبدو المدينة فجأة أصغر ، ويبدو الصمت أكبر ، والسماء أعلى .

لقد تعرّف الخريف إلى معاصر له . وللريح رغم رطوبتها ، حلاوة وشاح حيك بنعومة كي يقدم للحبيب . إذا لم تجيء الريح من الجنوب ، أعني من البحر ، فسيكون الغد يوماً جميلاً . يوم جميل ومع ذلك سيقوم الدكتور كوست غداً ، في هذه الساعة ، بنزهته الأخيرة تحت هذه الدلبات التي لم تتح له أبداً فرصة التمتع بها .

- أحس بالبرد . .

إيه! بما أنها أحست بالبرد . . .

أغلقت النوافذ .

عدتُ إلى مكاني أمام فاضلة . إنها المرة الأولى ، منذ بداية السهرة ، التي تستعمل فيها كلمات لا تخيفني ، كلمات بوسع البنت أن تقولها لأبيها ، كلمات البشر العاديين ، كلمات الأيام العادية . وهذا يبدل الشعور الآتي من :

- يجب أن يرحّل هذا الطفل . . .

وأنا مدين لها بذلك من أعماقي .

١٩

كنت أشك في أن تسألني فاضلة هذا السؤال . منذ فترة وأنا أتتبع نظرها الذي اتجه إلى الصورة ذات المقياس المتوسط التي تشرف على مكتبي . إن لها نفس الفم ، نفس العينين ولكن لون فاضلة يميل أكثر منها قليلاً إلى الشحوب .

- لماذا احتفظت بهذه الصورة؟

فلفتّ رأسي ونظرت إلى النافذة التي فتحت من نفسها كما لو أن روحاً لا أعرف كنهها دفعتها . ونهضتُ كي أغلقها فإذا بي يبدو لي أن كتفيّ أثقل من ذي قبل . وما كان بي ألم بل خجل . كنت أتألم وأنا خجل .

- أهذه هي؟ أهذه أمي؟

تركت فاضلة مقعدها ووقفت تحت الصورة . لقد آلمتني دون أن تتنبه لذلك . فأنا لا وجود لي بالنسبة إليها . عادت إلى جلستها . أتخيل أن كتفيها الصغيرتين ، هما أيضاً ثقيلتان ، تتثاقلان .

كان الصمت ، رغم كل شيء ، قد أخذ منذ فترة يقربنا بعضنا من بعض . أما الآن فهو يفرقنا ، يباعد بيننا ، وضع كلاً منا في قطب .

كانت منذ هنيهة خصماً لي وأحسّ الآن من عينيها أنها عدوّتي . كان الصمت يتكلم الساعة فلا يقول شيئاً . أمّا الآن فالصمت أبلغ من ذلك الذي يسبق قرار المحكمة ، أو تشخيصاً خطراً .

لقد كان الصمت إلى ساعة خلت شقياً . أما الآن فهو قاسٍ : إنه الآن إنساني بقسوة .

- ما كان أجملها!

ثم انتفض شعرها وأضافت .

- وبقيت هكذا صفر اليدين . . .

وابتلعت ريقي بصعوبة يسيطر عليّ شعور أني لو تكلمت ، لو أجبت ، لخرجت كلماتي من جبيني .

٢٠

دقّ جرس الساعة الثانية يجرّ معه جلبة كبرى . فنفذت إلى حدود الزمن . .

كنت راغباً عن هذا الزواج ولكني وعدت به أبي . لقد أمرني به وما كنت لأعصي له أمراً . كانت الرسائل التي يمليها لي -وما كان مثقفاً بغير العربية- مليئة بالإعجاب . كان ينتقم بي . فلقد انتهى أو يجب أن ينتهي بي بالنسبة إليه الجفاف الذي جعل قمحه قليلاً بله صوفه . كان ينتهي بي الصقيع الذي يجعل عقم التين والزيتون أبدياً .

كانت كل سنة من سنواتي الجامعية تكلفة قصبة من أرضه . ولقد كلفه صفي التحضيري بستان الكرمة الصغير ذا العنب الأشقر الواقع حد النهر ، في أسفل المقبرة . وكلفته سنتاي الأولى والثانية طاحون الزيت التي ورثها عن أجداده . كان يجب أن أتخرج ، أن أخرج من مأزقي . فلا أكون ذلك الذي يكلمونه بصيغة الأنت ، الذي يعاملونه بالقسوة ، الذي

يهملونه ، الذي يحتقرونه . ولم أكن في الواقع أتم دراستي ، بل كنت في خدمة أوامر أنفذها كأنني طالب في مدرسة ابتدائية ، يهيئ وظائفه .

- . . ابني في باريس ، يطلب العلم . . .

فيهز شيوخ القرية رؤوسهم بوقار . وكان أبي يستر غروره بلفيفة يدرجها ، وكانت أمي ترسل لي رزماً يصلني أكثرها تالفاً ، رزماً طيبة القلب . وكانت أخواتي يرين صوري إلى بنات عمي ، كي يعجبن بها ، فمن صورة في شارع ميشيل بمعطف بزرقة البحر ونعل جدّ عالية ، إلى ثانية برداء أبيض في المستشفى بين أردية بيض أخرى تبدو وكأنها جمهور خفي .

وبعد أن نجحت بالأطروحة لجأت إلى اختصاصي كأنني أمنح نفسي مهلة ما .

كنت راغباً عن ذلك الزواج .

كنت أعرف سعدية إلى حد لا أتمكن معه من حبها . لقد لعبت معها بالعظام في ظل أشجار البرتقال في الأيام الحارة من صيفنا البربري . وقطفت لها أحلى ثمار التين . وذات يوم ، في عطلة عيد الفصح -وكنت أعد فحص البكالوريا في الجزائر- جلبت لها معي من العاصمة منديلاً وقارورة عطر ، وبعد أن انتهت العطلة أرسلت لي مع إحدى أخواتي غلافاً فيه خصلة

من شعرها الأشهب . وكأنها قصيدة مؤثرة ، بسيطة تافهة ، صادقة كالمطر .

* * *

إني أرى الآن الغرفة الواطئة والنافذة المشرفة على الوادي ، كان الوقت كهذا المساء خريفاً ، ولكنه خريف أكبر من هذا وأكثر وقاراً . كان أبي على فراش الموت . واستجاب الطبيب ، وهو زميل عجوز من المستعمرين ، لرغباته . وكان أبي لا يرغب في أن يعني به سواي . لقد باع من أجل ذلك كرمه ذا العنب الأشقر وطاحونة الزيت التي ورثها عن أجداده ، ووقف على عتبة الأبدية يتمتع بانتصاره : لقد كانوا يدعونني دكتورا! . . فماذا يهم إذن بالنسبة إليه الكرم ذو العنب الأشقر ، وطاحونة الزيت التي ورثها عن أجداده . . .

- ستتزوج سعدية .

لم يكن قوله أمراً ولا رجاء . كان يقول حقيقة واضحة .

ولحقت به أمي بعد قليل إلى القبر .

وتزوجت بعد قليل سعدية .

* * *

وجاءتنا فاضلة بعد خمس سنوات من زواجنا . لقد رغبت

بتلك البنت ، تدفعني الحاجة لأن أرتبط بدين مع زوجتي . كنت أريد أن أرتبط ورغم كل شيء أن أبني . كنت أقوم بلعبة واضحة . ولكني كنت أقضي أكثر وقتي في العيادة دون أن تفوتني أية فرصة في حضور المؤتمرات الطبية التي تعقد في الجزائر أو باريس ، أو أي مكان آخر .

وكانت سعدية وهي اللطيفة الرقيقة تحس كل ذلك . وتتألم فأتألم معها .

وبت بعد فترة لا أتكلم في البيت . فكانت تذهب زوجتي كثيراً إلى قسنطينة تدعو «سيدي رشيد»(١) كي يخرج مني الشيطان الذي يضنيني .

وما كان يضنيني . أي شيطان أي شيطان أبداً . كنت أكن حباً عظيماً لسعدية . ولا يتزوج المرء أخته .

وكانت سعدية تحلم هي الأخرى . كانت تحلم بي ، كانت تحلم مني . وما أحلم بها .

وكنت فوق ذلك أصانعها . وكان ذووها من كبار الملاكين ونظروا إلى هذا الزواج بعين حادبة لأنه يرضي غرورهم القروي . كنت أحمل صك الشرف فحملوا لي وسائل السكن . فلم أطق ذلك .

---

(١) مزار يحترمونه المسلمون في قسنطينة .

عندما بلغت فاضلة الثامنة رحلت فكفل الصغيرة أخوالها وربوها .

وعلمت بعد لأي أن زوجتي ماتت في المستشفى النفسي في بليدا .

أنا أعرف أن لي كل مظاهر القذر .

٢١

في تكويني نقص تنبـــهت الآن له . أنا لم أتنصل في شبابي أو أتهرب . كنت أظن أن الحب يكفي للسعادة وطلبت كثيراً فما جنيت إلا القليل ولذلك أعطيت قليلاً .

وداهمتني فجأة الشيخوخة . وهي ليست شيئاً مخيفاً في ذاتها . وليس في شيخوختي ما آسف له . فأنا لم أمارس رياضة الشتاء في السادسة عشرة من عمري . ولم أشاهد ابتسامة ما على شفتي قريتي . ولم تداعب أية يدٍ شعري في الساعات المثالية .

ومع ذلك جرمين .

***

انتهيت من السنة الخامسة . كانت جميلة كصورة تذكارية . والحق أني لم أؤمن أبداً بقوة السعادة ، إن السعادة شيء كنهه زائل ، كالحياة ، وكتلك الأدوية التي لا يمكن استعمالها بعد أجل معين . وأعلن أنني خفت دائماً منها .

عندما كنت ابن ثمان رغبت في أن يكون لي عشرون بل ستون ، حتى أكون حكيماً ، قانعاً ، غير عابئ بالأمل . وها أنذا! وصلت إلى تلك الستين . فهل أنا أكثر حكمة أو أشد قناعة؟ إني لأجهل ذلك . ولكنني أعلم أني لم أعد جائعاً ، وأن شهواتي باتت عقلية .

ومع ذلك جرمين والمطعم الصغير أمام (الأطفال المرضى) . إن المكانة التي تحتلها المطاعم الصغيرة لا تصدق في حياة الطلاب . كانت جرمين ذات عقل وقلب . كانت تبتسم دائماً . وكانت تشترك معي في أنها تحب الأدب أكثر من الطب ، وذلك نادر في مثل هذه المهنة . وهل الطب سوى أدب في حيز العمل؟

إن رجلاً في مثل سني لتنتابه الطهارة عندما يذكر حبّه الأول الوحيد .

قالت فاضلة وكأنها تتلذذ بمذاق الانتقام : لقد أخطأت الساعة . . لقد أخطأت فلقد تبدلت كثيراً .

أخرجت من محفظتها الخضراء دفتراً ومن الدفتر صورة مدتها إلي .

إنه أنا .

أنت على خطأ يا دكتور قدير ، لقد كان هذا أنت .

لقد قضيت ثلاثين عاماً حتى وجدتني . لقد نشرت خيط

الصوف الملفوف . أعدت الحاكي إلى أول الأغنية . ووضعت السماعة في مكانها . ولكن عبثاً .

إن شيئاً من كل ذلك لم يجاوبني . فأنا لم أنظر إلى وجهي منذ ثلاثين عاماً . هاتان العينان اللتان تحدقان بقسوة ليستا عيني . إن عيني تكتفيان الآن بالنظر . إن المستقبل لم يعد في عيني .

ومع ذلك لو حفر أحد في هاتين العينين ، لو اقتلعهما أحد لوجد فيهما جرمين . في أعلاهما في اسفلهما في كل مكان جرمين .

***

إني أذكر قطاف العنب على شاطئ الدورانس في طالع تشرين الأول الذي تغمره القحة ، كان يبدو لنا وكأن الخريف يعد لنا ضربة قاسية .

- أنا أثق بك ثقة مطلقة . .

رآنا طفل صغير فصرخ :

- إيه! أيها العاشقان ، أتريدان عنباً؟

ورمى لنا بعنقود وهو يضحك . كان أشقر كإله صغير . احمرّ وجهي كالعنب . إني لم أستطع أن أتحرر أبداً من طهارة الإسلام .

كنا متمددين على العشب نستند على منحنى من الأرض

الحمراء وخضرة الكرمة تلتهب تحت الشمس وحشرات صغيرة تتشابك في ألعابها البهلوانية .

- هل السماء بمثل هذه الزرقة في بلادكم يا صلاح؟

كنا نتكلم فلا نقول شيئاً ، نتكلم كي نكون بعضنا أدنى إلى بعض ، نتكلم لأننا كنا في هياج .

تلك السنة ، وليبارك الله رغم كل شيء ، تلك السنة قضيت الصيف في فرنسا . ودعاني أهل جرمين إلى بيتهم في الأيام الخمسة عشر التي تنتهي بها العطلة ، وكان أبوها -طبيباً بيطرياً- يشك في أن تجمعني بابنته عاطفة غير الصداقة فقررت عندها أن أفتح قلبي له .

- إن السماء في بلدي يا جرمين أشد زرقة من سماء البروفانس وستعرفينها عندما تصبحين زوجتي .

فانتصبت جرمين وفمها يرتجف بشكل يكاد لا يرى .

- عندما أصبح .

- نعم يا جرمين عندما تصبحين زوجتي .

وعاد الطفل ذو العنب إلى مداعبتنا :

- وبعد أيها العاشقان ، ما زلتما تنظران للآخرين وهم يشتغلون!

قالها بتلك اللهجة التي تتموج باسترخاء كالديرانس .

- إنني أتكلم جديّاً كما تعلمين .

لم تجب جرمين ولكنها أمسكت بيدي وشدت عليها بقوة حتى أنها خدشتني .

وعبرت غيمات خفيفة ، بيضاء ووردية ، لا أدري من أين جاءت وألقت بنفسها إلى المغرب . وأظلمت خضرة أوراق الكرمة .

وما زال النور يحتفظ بحقوقه كاملة لم تمس .

إلى كم من الزمن أبقت جرمين يدي في يدها؟ إنني أجهل ذلك . وكانت آخر العربات الصغيرة قد امتلأت وكان راع عجوز أظن أن «دوديه» قد اخترعه ، يقود صامتاً قطيعه من الشعب الذي يجاور القناة .

- أظن أن البرد ألم بك يا جرمين؟

وأعطيتها معطفي . لأني لم أكن أنا أحس بالبرد فلقد غمرتني حرارة غريبة . إني أحس دائماً بتلك الحمى في ساعة الامتحان ، وغامت أجراس القطيع الأخيرة في مسيرتها إلى الترعة . كنا نسمع المساء قادماً ولكننا لا نتحرك .

أأجرؤ على أن أقبلها؟ كنت أحس أن بيني وبينها جداراً لا يرقى من الخجل . كنت مشلولاً . وانطوت حشرات العشب على ذاتها في حنية مريحة من حنايا غريزتها . وبكت قاطرة وهي تصعد في طريقها إلى غرونوبل . أأجرؤ على تقبيلها؟ أظن أن جرمين ما زالت تحتوي يدي في يدها .

ولكنها أطبقت عينيها .

وعاد الطفل الذي أخذ على نفسه مداعبتنا من البئر - يقولون هنا ذهب إلى الماء- ولما وصل إلى مستوانا قال :

- أظنكما تريدان قطف النجوم؟؟

ثم فر وهو يضحك .

نعم ربما كنت أريد قطف النجوم . النجوم التي أخذت في تلك الساعة تذر قرنها على ذرا الحور والدلب .

- نعم أحس قليلاً بالبرد ، فلنعد إذا شئت . . .

وتبادرت لي فكرة أن الرطوبة الصاعدة من القناة ليست السبب الوحيد لارتجاف صوتها .

ولا أعلم فيما إذا كانت يد جرمين ما زالت تحتوي يدي وسرنا كمروبصين .

- صلاح . .

قالتها وصوتها ما زال يرتجف :

- أنا مصغ إليك يا جرمين .

- صلاح . .

وصمتت وهي تضغط بنفسها علي ونحن سائران . وتبادرت لي فكرة أن الرطوبة الصاعدة من القناة لم تكن السبب الوحيد . .

وصلنا قدام بئر واقعة في مدخل ممر يؤدي إلى بيت أهل

جرمين . وكانت في الحقل ، العربات الباقية ترفع خشباتها كأنهما ذراعان تجأران بصلاة .

- صلاح إن ما قلته لي الساعة . . .

وبقيت الكلمات في حلقها كما تظل الحقيقة في عمق الجب . واسترخت كتفا جرمين على ذراعي . كانتا ناعمتين لدنتين ، مرهقتين حتى لخلت أني أمسك بيدي عصفوراً وليداً .

- هذه النجوم التي ترين الآن يا جرمين ، تُرى أيضاً في بلادي . ستقص عليك عندما تذهبين معي سيرة زمن القطاف فنذكر آنئذ هذه البئر . هذه البئر ستكون يا جرمين أول شاهد لزواجنا .

فتخلصت مني فجأة :

- لا ، لا ، يا صلاح إن خطيبي سيصل خلال أسبوع .

وركضت تجاه البيت .

* * *

كنت أجهل آنئذ أنه لا يمكن قطاف النجوم .

٢٢

رددت لفاضلة صورتها ، صورتي . كانت ثانية كافية لأسترجع ثلاثين سنة . إن الزمن يضيع في التبدل من حال إلى حال . بوسعك أن تتكلمي يا فاضلة ، بوسعك أن تشتميني فأنا أقرب إليك مما تظنين . إنني أملك موهبة «الالتجاء» -كما تقولين- لوحدي . كل يلتجئ حيث يستطيع لأن في هذا مستقبله ، والمستقبل هو ما يريد أن يحميه عمر . أما أنا فماضي ، الماضي هو الذي يحميني . إن مستقبلي الوحيد هو ابنك وسأحميه رغماً عنك . .

- أليس لك قلب!

وباتت عينا فاضلة مدورتين محنقتين . .

هيا يا ابنتي ولنكن عاقلين .

* * *

كان ذلك قليلاً قبل شهر أيار ١٩٤٥ . كان عمر فاضلة سبع أو ثماني سنوات . في القرية وفي المجلس المختلط كنت

أحظى بشهرة طيبة في أني طبيب جيد . كانت زوجتي المسكينة تحاول بكل الوسائل أن ترضني ، وكانت بهذا تجعلني شقياً .

وكانت بهذا تملأني عذاب ضمير .

إنه لمن الجنون أن أحس بهذه السهولة بالجريمة .

كان يخيم على الجزائر جو من القلق . لقد عرّت الحرب الأخيرة -هذه القيصرية- كثيراً من الحقائق الفظيعة . إن الربيع الذي جاء لم ينبئ عن الزهور .

كنت مستغرقاً بمهنتي رغم أنه لا يضْحك شيء مثل العمل بمهنة الطب في بلادي . كان من الضروري أن يوجد عدد من الأطباء يوازي عدد المرضى .

كان الشقاء عظيماً .

كانت «السلطات» تأخذ عليّ عدم اختلاطي بناديهم ، النادي المخصص لعلية القوم في المنطقة .

وما كنت أتجنب مجتمع القرية عن مبدأ وإنما عن هوى . كان المسلمون يلومون فيّ غروري . كانوا يفضلون طبيباً حليماً اجتماعياً .

هنالك مظهر جزائري بحت : وهو أن المفكر المسلم ملك للمجتمع كله . في تلك الحقبة ، أقول في تلك الحقبة ، لأنه ظهرت منذئذ أكثر من صفوة ، صفوة ليس من الضرورة أن

تخرجها مدرسة معينة ، في تلك الحقبة لم يكن المفكر حامل علم الجمهور وإنما ملكاً لذلك الجمهور .

لقد رفضت دائماً دعوات الحكام متذرعاً بمختلف الأسباب . ولم أكن أشك في أني أقلقهم بل أغضبهم . وما كنت أجدني ملزماً بأن أقدم لهم أي حساب ولم يدر في خلدي أن أوقف على أسراري أول موظف قادم من العاصمة . وكان في القرية طبيب آخر من بريطانيا لطيف جداً وماهر حاول في البدء أن يصادقني ، ولكن عبثاً . كان المرضى الأوروبيون لا يأتون إلى عيادتي ، حتى عندما يأخذ زميلي عطلته السنوية . كانوا يفضلون أن يذهبوا إلى المدينة فيقطعون ليلاً أو نهاراً مائة كيلومتر بدلاً من أن يتقبلوا عناية طبيب من «الوطنيين» . أليست هذه هي العرقية! . . حتى كأن البنسلين يفرق بين فرانسوا ومحمد . وأعلن أني لم أشعر لذلك بأدنى مرارة . لقد اكتسبت من معاناتي الأمراض الخبيثة مناعة ضد هذا النوع السلبي من الغضب .

***

ولكني ذات يوم لم استطع التخلي عن واجباتي الاجتماعية . فقد أقيمت حفلة تحت رعاية الصليب الأحمر في صالات المجلس المختلط الذي أصبح كما علمت من الصحف مركز القائمقامية وتقضي اللياقة أن يحضر الطبيب

مثل هذه الحفلة فذهبت إليها ضد إرادتي .

***

واستقبلني الحاكم بنفسه ليثبت لي أن حرارة وده تدفعه لتخطي حدود المراسم . وقد لاحظ الجميع دخولي لأن الناس لم يعتادوا على رؤيتي في هذه الأمكنة . كانت الأنوار والشمبانيا تتدفق أمواجاً . كانت البرانس المزركشة والمتسخة تتحرك إلى جانب البزات الرسمية والثياب العادية . والسيدات يتبارين بزينتهن .

كنا جدّ بعيدين عن الجزائر ، بعيدين عن كلاب الدوارات التي نسمعها أحياناً إذا توقفت الأوركسترا . كانت السهوب حولنا ساهرة وأنا أرى من خلال النافذة الأرض التي تتصنع النوم ، والأنوار الصفراء التي تلطخ البساتين الملحقة ، تعزلنا فيبدو عالمنا الصغير اللامع كأنه سفينة عظيمة على بحر من المرارة .

وتكاثرت انحناءات الاحترام وتبودلت الابتسامات المصطنعة من وجه لآخر . وتميزت بعض البرانس من بعضها بحجمها وأبهتها . ولا بد للإنسان من أن يرى النظرة المطمئنة لبرنس مزركش حتى تتكون لديه فكرة تقريبية عن الرضا والسطحية و«النجاح» .

ظللت بعيداً استغرب لماذا حضرت . لمَحت لي زوجة

الصيدلي أنها لا تراني أبداً في ملعب التنس ووعدني المستشار أن سيمنح المستوصف المدرسي آلة تصوير شعاعي حديثة . كنت أصغي بأدب وأنا أجمع كلماتي حتى أجعلها جملاً كأنني طفل يتعثر في بناء البيت اللعبة .

كنت في داخلي معجباً بلباقة الحاضرين وبالمرح ، مصطنعاً كان أو صادقاً .

وما زلت أنظر من فجوات النوافذ العريضة إلى السهل . والهضاب العالية تتغطرس بانحناءاتها وتصغي ، وهي قابعة في برودها ، إلى الموسيقى ، تصغي إلى ضحك السيدات وسدادات زجاجات الشمبانيا . آه! لو كان بوسع البنسلين أن يتدفق أمواجاً .

***

لقد ظهرت أعراض مزعجة فلقد نبهني المساعد إلى عدة مرضى مشبوهين في دوار (بن يوسفي) . ولا بد من القول أن شتاء ١٩٤٤-١٩٤٥ كان شتاء قاسياً جداً . سيد المعركة فيه الجوع والثلج كما كانت الشمبانيا وثياب السهرة سيدة الحفلة .

نعم لقد أقلقني مرضى دوار (بن يوسفي) . وأنا أمقت تلك البقع الوردية في الخدود الناحلة .

إنهم يتحدثون عن الحمى الراجعة .

أنا أخاف التيفوس . . .

***

وقف مـغن يحكي على المكبـر حكايات مـدون والمارن والحانات ، حكايات الحب والعهود والقبل . .

***

توجـد على بعـد مـا لا يقل عن آلاف الكيلومتـرات من الشقاء والحفلات الصغيرة والنبيذ الأبيض ، شمس رحيمة بالخمرة ، وظلال الدلب وخلجان جميلة مهمتها أن تقف أمام المصورين كي تبدع بطاقات مصورة وعشاقاً .

إن ما يقلقني هو تلك البقع الوردية . سأذهب بنفسي غداً إلى دوار (بن يوسفي) .

***

- أراك صامتاً يا دكتور .

قال ذلك لي القائد . قائد دوار (بن يوسفي) نفسه ، وهو رجل ضخم خبيث ، له طلعة بهية ، بهية جداً ، ومن أسف أنه سافل .

لقد تحاشيته دائماً ، فأنا لا أحبه وهو يعرف ذلك . ولكن الإهانات تنزلق عليه كما تنزلق الوساوس على برنسه . وهو لا يمدّ يده أبداً للسلام بل يحيي بطريقة عسكرية . يا لله كيف صنعوا بالنسور وأي مصير ارتضت النسور أن تصير إليه؟! إنه مهذب إلى درجة لا يمكن أن يكون معها أميناً ، وهذا صحيح ، صحيح جداً .

كلمني بالعربية .

أجبته ، عن مبدأ ، بالفرنسية لأني أتحاشى أن أشارك كائناً أحتقره بالرباط الأخوي الذي تخلقه اللغة المشتركة .

- علمت أن كثيراً من المرضى في دوار (بن يوسفي) يشكون من نفس الأمراض . .

أجبته بصوت جاف :

- أعرف ذلك وأنا مهتم به .

لم يلحّ بل اتجه ناحية الخوان . إن خطيئته الأشد صغاراً منه هي «العرق» . وهو يذهب مع ذلك كل جمعة إلى المسجد الجامع وقرر أن يحج إلى بيت الله الحرام . فهل يأخذ معه في ذلك اليوم سوطه الذي يمكّن لسلطته في المشتى؟

اقتربت من جديد من النافذة أنظر إلى البستان فينظر إليّ القمر .

كانت أشجار البلح تتمايل احتراماً لليل احتراماً وليس انحناء . والنباتات ترتسم على الجدران ظلالاً غريبة . وخيّالة المجلس المختلط تقوم بالحراسة في مدخل الحديقة بثياب المراسم . هؤلاء هم أيضاً طلعة بهية ولكنهم ليسوا سفلة ، إنهم أناس فقراء .

- وأخيراً بتنا وحيدين! أنا سعيد بأن أراك بيننا هذه الليلة وهو شيء نادر جداً يا دكتور قدير .

الحاكم العام رجل حسن ، بل إنّه جميل جداً ، أشقر ، واضح ، لم يتجاوز الأربعين .

- كيف حال المهنة؟

فعرضت عليه مخاوفي حول دوار (بن يوسفي) وهو يصغي إليّ بوقار :

- أنت تعلم أني أدعمك بكل ما أستطيع . .

ثم أضاء وجهه :

- يا للشيطان! إننا لسنا في خدمة هذا المساء . .

ومرّ نادل له هيئة شمبانزي متنكر بلباس رئيس خدم :

عرض عليّ الحاكم قائلاً : كأساً من الشمبانيا؟

- لا شكراً ، أنا لا أشرب الكحول أبداً .

- إنك لحكيم .

- لست حكيماً ، ولكني مسلم .

- إذن سنأخذ كلانا كأساً من عصير الفواكه .

وأعلن أني تحسّست بهذه الكياسة .

- أودّ يا دكتور أن أسألك نصيحة ، وهي طبعاً نصيحة لا تدخل في غير نطاق الطب .

فأجبته مردداً جملته :

- ولكننا الآن لسنا في ساعة خدمة .

فانفجر بضحكة كبيرة ، ضحكة تنطق بالصحة ، والتوازن

الكامل .

- إن زوجتي تنتظر ما يسمى بالحادث السعيد فطلبت منها أن تلحق بي إلى هنا . . .

فقاطعته :

- ولكني كما تعلم لست ماهراً في فن التوليد . .

- ولكنك على كل حال تعلم عنه أكثر مما أعلم . . نعم إننا ننتظر كما قلت طفلاً وأتساءل فيما إذا كان المناخ هنا يلائم الأم المقبلة . . وهنالك من جهة ثانية هذا الوباء الذي يهدد . . عفواً ، دقيقة ، أرجوك . . .

كانت بسط الخوان البيضاء تلتمع في بريق الأكواب وأواني الفضة . كانت النوافذ وراء الخدم توقف الليل الذي بات بنفسجياً . ودرت بظهري إلى الصالة . انظر إلى الليل وإلى نجوم بلادي فيسحرني الليل .

وحطّت يد على كتفي .

التفتّ .

- أقدم لك يا عزيزتي . . .

كانت هي جرمين .

٢٣

صرت أكره القرية . أخذت صورة حبل جرمين تعذبني . بات العمل لا يكفيني على أن العمل ليس مادة منشطة . وأخذت سعدية تمحي شيئاً فشيئاً أمام كثرة غيابي . كنت لا أخرج إلا نادراً خشية أن ألتقي بشبح القطاف .

***

في ذلك الأربعاء ، وكان يوم سوق ، لم تفرغ عيادتي من المراجعين كما في بقية أيام السوق . ولقد ذهبت في عشية ذلك اليوم إلى دوار (بن يوسفي) فرأيت أن مخاوفي صحيحة : لقد ظهر فيها التيفوس . إني أذكر ذلك جيداً ، أني عندما عدت عند الفجر إلى البيت لم يتسع لي الوقت لأكثر من حمام . فقد كانت القرية تعجّ ساعتئذ بضجتها العادية . كان عليّ أن أبدأ العمل في ذلك الوقت ، نعم أن أبدأ العمل .

كان ممرضي قادر رجلاً مهماً . فاجأته ذات يوم جالساً إلى مكتبي وسماعتي في أذنيه وقد أخذ يفحص أحد أبناء

عمومته . كان يتخذ في غيابي لقب دكتور . وأغرب ما في الأمر أن تشخيصي كان كثيراً ما يؤيد حدسه . كان مصاباً إلى جانب الكبت الطبي بآفة تدخين الكيف . عندما كان يأتيني متعالياً ، غائباً ، منفصلاً عن الأشياء الأرضية كنت أفضل أن أعنى بنفسي بالحقن والأدوية . وفيما عدا ذلك كان يعينني كثيراً مخلصاً لي جسداً وروحاً . يضع نفسه ليل نهار تحت تصرفي . يكنّ لي إعجاباً معترفاً بالجميل لا حدّ له لأني أنقذت أمه . كانت أمه إلهه وأنا نبيّه .

كان النهار طويلاً ، وما غادر آخر الزبائن عيادتي إلا وقد تجاوزت الساعة السادسة وظلت تهوم في العيادة وفي غرفتي الانتظار رائحة البؤس الإنساني الفظيعة . ففتحت النوافذ وأخذت أدخن لفيفة استحققتها وأنا أتأمل طيور اللقلاق العائدة إلى أعشاشها ، وقد أخذت مصابيح الاسيتيلين تطل من المقاهي العربية في الشارع الرئيسي . وكان اللحامون يزيدون من أوار نارهم . ورأيت عاملة البريد تقطع الطريق إلى «مقهى فرنسا» حيث يأكل موظفو القرية العازبون . كنت أحسّني متعباً كأني سكران .

استدعيت ممرضي :

– قادر! أنا لست هنا لو جاء أي إنسان ، أتسمع ، أي إنسان! . .

- وحتى لو جاء الله يا حكيم؟

كانت تلك حيلته الوحيدة ولكنها كانت تجعلني أبتسم .

فأجبت :

- حتى لو جاء الله .

كان وجهي بين يديّ لا أعلم في أية فكرة أتشبث : كنت فارغاً . كنت في الفراغ . لقد قضيت النهار بطوله وموضوع تفكيري أفعالي المنعكسة .

إنه لحزين أن يجد الإنسان نفسه في مساء يوم عمل وهو يترنح تعباً سعيداً لأنه أتم عمله . لقد سجنت نفسي إذن سنوات عشراً من حياتي من أجل ذلك ، سنوات عشراً من شبابي في قنّ في الحي اللاتيني . . من أجل أن أرى طيور اللقلاق ، من أجل أن أرى عاملة البريد وهي ذاهبة إلى المطعم ، كي أتنفس في عيادتي رائحة البؤس الإنساني الفظيعة؟

أظن أنني غفوت فجاء صوت قادر يهزني :

- يا حكيم! يا حكيم هنالك زائر . . .

- قلت لك أني لا أريد أن أرى أحداً!!

كان ممرضي يتمزق :

- إنها فرنسية يا حكيم!!

ولكنني أفهمته أني لا أريد أن استقبل أحداً حتى

ولو كان الله .

أعاد :

- فرنسية يا حكيم .

لم يتعود ممرضي أن يرى أوروبيين في عيادتي .

- لن استقبل أحداً ، أتسمع ، أي أحد!!

لم يلح قادر ولكنه هزّ كتفيه كأنه يعني :

- أنك أنت الذي تأمر هنا على كل حال . .

خرج وأغلق الباب . فسمعت دمدمة مناقشة مكتومة .

- يقول إنه لا يريد أن يرى أحداً .

- . . .

- لا ، لا أحد .

- . . .

- لا أحد ، قال لا أحد حتى ولو كان الله! لا أحد تعني لا أحدا!

لم أنر الغرفة حتى تلك الساعة لأن الظلام الخفيف يريحني . وأنا أحب السلام الذي تمنحة العوالم المبهمة .

كانت المفاوضات ما زالت مستمرة في غرفة الانتظار . وبعد قليل عاد إليّ قادر يقول :

- قالت لي أنك ستسقبلها حتى ولو كنت غير قادر على استقبال الله . .

وأعطاني بطاقة . السيدة جرمين ماليه تلحّ في أن تراني .

***

لم أستطع دفع نفسي للدخول في الموضوع -ولكن صوتي لم يكن فيه شيء من العداء- لم أستطع دفع نفسي عن أن أسأل :

- ماذا تفعلين هنا؟

لقد جاءت أبلد الكلمات وأتفهها إلى فمي . لقد كانت جرمين ، هي جرمين زمن القطاف . ولكني لم أتخيلها أبداً في مطعم صغير إلى جانب «الأطفال المرضى» في شارع سيفر أو في أي مكان آخر .

فأجابتني بلهجة لا يمكن أن يكون في العالم أشد طبيعية منهما .

- أتسمح لي بالجلوس . . .

لقد سيطرت على اضطرابي .

- أعتذر .

أشعلت الضوء . كان وجه جرمين وقوراً . ولحسن الحظ أغاثني التعبير :

- إني لا أجدك في حال حسنة يا . . . يا سيدتي . .

أظن أني ترددت عندما قلت سيدتي . . . كدت أقول : عزيزتي .

- نعم أنا لا أجدك في حال حسنة يا سيدتي .

- إني أدعى أيضاً جرمين كما تعلم . . .

إن الاسم الصغير يحوي ما لا تسطيع لغة أنت أن تلخصه . ما لا تحويه النظرة المشتركة المتآخية . ما لا يرويه بوح يبقى في الحلق .

أخذت جرمين تقلب فيّ نظرها . وجدت أن عينيها هادئتان نظيفتان وفمها ذكي جداً . ولكن لخاتم الزواج الذي تحركه في يدها بريقاً كبريق القنبلة .

قرع قادر الباب بشيء من الخشية . شكرت له أن مكنني من هذا الفاصل فاستعجلت بأن صرخت له :

- ادخل! ادخل!

- هل يمكنني أن أذهب؟

- هل رتبت كل شيء؟

- نعم .

- بوسعك أن تذهب ولكن كن هنا غداً صباحاً في ساعة مبكرة . والآن خذ ردائي ولا تنس أن تمرّ بالمعلم من أجل أن تعطيه إبرة الكافور .

لقد ربحت دقيقتين بفضل مرضي . ولكن الهيجان لم يترك لي أية فرصة . وقرع الباب من جديد ، ولكن القرع كان جريئاً هذه المرة . كانت فاضلة . عندما رأت فاضلة جرمين

تراجعت قليلاً .

- تعالي يا قطتي . ألا تقولين مساء الخير للسيدة؟

السيدة التي اسمها جرمين .

لم تتحرك فاضلة مع أنها أنيسة عادة ، جدّ اجتماعية . ظلت ملتصقة بي كأنها من تلك الحيوانات الصغيرة التي تتنبأ بالخطر فتتجمد مذعورة .

- هيا يا عزيزتي قولي مساء الخير إلى جرمين . .

لا مجال لرد الكلمة لقد أفلتت مني! ترى أتعلم فاضلة أني لا أدعو مرضاي بأسمائهم الصغيرة؟ لقد مدت ، وكأنها آسفة للسيدة ، يداً رخوة باردة . لقد اشتركت مع جرمين بنفس شعور الحرج .

- أليست صغيرتي جميلة؟

فأجابت جرمين : إنها جد جميلة .

خلت أن صوتها يخدش أمعاءها . ألحّت قائلة :

- نعم ، إنها جميلة جداً .

وتلا ذلك فاصل آخر :

- قولي يا قطتي ما الذي أتى بك إلى هنا .

واستعادت فاضلة بريق سنواتها الثمان :

- لقد تشاجرت مع سليم .

- ولماذا تشاجرت مع ابن عمك؟

- إنهـا غلطتـه . قـال إن المعلمـة على خطأ وهو يزعم أن الأرض ليست كروية . . اليست الأرض كروية يا بابا؟

- إن الأرض حتماً كروية ، هيا ارحلي!

فذهبت فاضلة وهي تصرخ :

- ربحت! ربحت! الأرض كروية! الأرض كروية!

إنه عمر مبارك . أن الطفل يسره أن يكون على حق . يسره فقط أن يكون على حق . يسره أنه ربح . ربح ليست فعلاً لازماً إلا عند الأطفال .

ها نحن أولاء وحدنا من جديد . تطلعت آلياً وبصفاقة إلى ساعتي .

- هل أنت على عجل؟

- أنا لا أكـون على عـجل أبداً إلا إذا كـان لدي مـريض خطر .

أليس هنالك مـريض على خطر يا دكـتـور صـلاح قـدير؟ ألست أنت مريضاً ، ألست في خطر .؟ أو ليس لمرضك عينان هادئتان نظيفتان وفم ذكي جداً؟

- وأنت؟

- وأنا أيضاً لست أبداً على عجل . . .

فقلت بصوتٍ أتصنع فيه الانطلاق :

- إذن كل شيء على ما يرام .

كل شيء على ما يرام ، يا للسخرية! . .

حاولت أن أنبش في أفكاري ولكنني لم أجد شيئاً . إن جرمين لم تأت كي تحدثني بقدر ما جاءت مدفوعة بحاجة العودة إلى ذاتها . إنها لم تجيء لأنها تعرفني بل لأنها عرفتني من قبل . لو جرؤت ، لو لم أتحاش السخف لسألتها هذا السؤال :

- عم نستطيع أن نتحدث؟

مثل هذه الأسئلة لا تلقى إلا عندما نعني أن ليس لدينا ما نقوله . . .

لقد قوّى حرجي مجيء فاضلة وهي تصرخ : بابا! وتسأل إذا كانت الأرض كروية . إن جرمين لم تعد باريس ولا المطعم الصغير الذي أمام «الأطفال المرضى» التي إذا ذكرتها تبدلت وجملت . إن جرمين هي كرم قريب من الديرانس . إنها طفل صغير كان يداعبنا . إنها نجوم أردت قطافها . إن الزمن لا يبدل شيئاً لأنه بارد وهو يحافظ كالبرد ، على كل شيء . وأخيراً قررت أن تتكلم :

- جئت يا صلاح كي أقول لك . . .

إن جرمين غير ملزمة بأن تقدم لي حساباً . وماضي غير ملزم بأن يقدم لي حساباً . سيعود عاجلاً أو آجلاً ليمنعني من النوم ، ليمنعني من الطعام . ولكنه سيجعلني أحلم تعويضاً لي واعتذاراً . إن البشر لم يرزأهم سخف الحظ حتى يكون لهم

جميعاً ماض .

تكلمت مستغرباً من سماع صوتي :

- إن هذا لا يفيد في شيء كما تعلمين ، لا يفيد في شيء .

ووجدتني مضطراً على أن أفكر بدلاً عنها وعلى أن أجيب على أفكارها :

- ومن جهة ثانية أنتِ لستِ مدينة لي في شيء يا جرمين ، أي شيء ، حتى في هذه الزيارة . .

واستفاقت من خدرها . كانت أصواتنا متعبة لأنها بحثت عن الكلمات في قعر بئر ، في قعر البئر القريبة من الديرانس .

- . . . أنت تعلم يا صلاح . .

- أعرف يا جرمين ، لا تتحدثي عن ذلك . .

وحاولت أن أكون غليظاً :

- هيا خذي معطفك وارحلي سريعاً!

فأجابتني وكأنها تريد أن تعصاني :

- إنك تكلمني كما تكلم فاضلة . هل تطردني؟

يا إلهي كيف يغني صوتها . . .

- وتظنين يا جرمين أنه يمكن أن نطرد ذكرى . .

نهضت وأخذت يدي فأحسست أن يدها ترتجف .

أظن أن السبب هو الرطوبة الصاعدة من القناة .

٢٤

لقد عدت من أطراف الزمن . كم كانت الرحلة بعيدة يا رب! يقولون أن الأسفار تثقف الشباب .

قامت فاضلة بدورها إلى النافذة وفتحتها ووقفت على الشرفة فاستفدت من هذه الفرصة كي أفرغ المنفضة وأحني قليلاً مُتّكأ مقعدها : سترتاح في جلستها .

ابنتي حامل . ولم أتعود بعد على تلك الفكرة . مع ذلك يجب أن يعين الطبيب الأب . ولكنه لا يعين . لقد شاخ الطبيب كما شاخ الأب وجاءه الزمن الذي يتقاعد فيه . وإني لأتساءل بالواقع ما سيحل بي الآن بعد أن رحل الدكتور كوست . لقد سبقني دائماً إلى حميد الفعال . ووصلت إلى عمرٍ لا أستطيع فيه أن أبني صداقات جديدة . أنا وحيد ، نعم وحيد ، جدّ وحيد . إن فاضلة على حق في زعمها فقد بت فارغ اليدين . إن للشقاء ، رفيقي القديم على الدرب ، آثاراً غريبة .

العائلات تذهب إلى السينما ، تقلق من أجل الشهادة الثانوية ، تقلق من التهاب أولي . .

بداية المطاف . .

كنت أيأس لو أن الموت لا ينتظرني على ناحية ما من الدرب . ولكن هذه الفكرة عزاتي ، إنها وحدها تستطيع أن تعزيني . كل شيء يبدو لي ثانوياً نسبياً . إن ما يسمى بالأنانية ليس في غالب الأحيان إلا شكلاً عالياً لإنكار الذات . لقد ولد عدم اهتمامي من عدم قدرتي على العيش . وأنا مفرط الحساسية فيما يتعلق بذاتي . لم يبق لي في هذا الطوفان إلا الله . ولكن الله ليس أرضاً موعودة في نهاية الجحيم ، وإنما حطام سفينة نتعلق بها . إن الصمت هو صديقي ، الموت هو صديقي ، لقد تنبهت إلى أني مللت خلال أكثر من نصف قرن ولكن مَعين حناني لم ينضب بعد . مشكلتي أنني غائب دائماً إلى حدّ فظيع . إن عينيّ اللتين لا تهتمان هما كعدم قدرة . وأنا أرافق عينيّ في حنينهما إلى الأرض .

أود أن أوضح لفاضلة بلطف ، وهدوء ، وإقناع وصبر أني : لا أحقد على السنونو ، لا أحقد على نفسي ما دمت راحلاً .

وددت فيما خلا ، حاولت أن أوضح ذلك لأمها . ولكن جداراً انتصب . كان دائماً هنالك جدار ينتصب . أفهل أُلام إذا لم أسعد امرأة وابنة؟ ولماذا؟ لم تكن لي في ذلك حيلة لأني لم

تواتني القدرة . وأنا لم أقرر أن أصنع شقاء عائلتي أو شقائي ولكني لم أقدر على أن أصنع سعادتها! وهكذا ظللت فارغ اليدين . ولكن هاتين اليدين لم تتمتعا ، لم تصفقا للعمل الرائع الذي لم يتم . إن إرادتي ليست على قدر وسيلتي .

ما زلت مقتنعاً أني كنت أنجح مع جرمين . ولكن لا توجد إلا جرمين واحدة في حياة الرجل . ولا بد من أن يجد لنفسه مبرراً أو أن يفقدها .

ألحّت فاضلة بهدوء وقوة تقول :

– ألا ترضى بأن تقبل عمراً عندك؟ لعدة أيام فقط . .

إن العين لترى والأذن لتسمع أن ابنتي تحب عمراً . لم تعد كلماتها الساعة كلمات أم . لقد باتت كلمات امرأة . إن فاضلة تستعطف . أضحت مهذبة . إن ما كانت تطلبه وتلح فيه بوقاحة وإلحاف من أجلها أخذت تسأله بلطف من أجل عمر .

– إنك تعلم أنه لم يؤذ أحداً . . .

أنا أدري ، يا فاضلة ، أنها ليست جريمة أن يحب الإنسان وطنه .

إن الأخلاق تهتم بالجريمة . ويهتم الشارع بالمجرم . أما المجرم فهو دائماً المغلوب .

إن شيئاً ما لا يتصل بي مباشرة . الحواجز! في كل مكان حواجز . كل إنسان في مكانه والله ليس لأحد . يا للسفاهة!

كانت جرمين إلهي ، إلهي الكريم . لقد صليت لها كما يصلون ، وحدثتها بكل صمتي ، بكل نظرة من نظراتي . كان نوع من الحلول البدائي يدفعني لأن أعطي جرمين صفات اللانهائي . . . إن جرمين ليست المرأة التي أحببت ، وما زلت أحب -وخير لنا ألا ننفخ بشدة على الجمر- لقد كانت جرمين قبل كل شيء وفوق كل شيء ، رغبة في الحياة . ولأن يملك الإنسان الرغبة في الحياة هو أن يعيش في المجتمع .

أنا أمقت التاريخ لأن التاريخ يعقّد كل شيء . إن السياسة في صورتها الثانوية الخادمة العبدة تحاول ، تجرّب ، كطفلة صغيرة لعوب ، أن تجرّه من أنفه . ولكن التاريخ ليس من صنع البشر . أنا مقتنع أنه كان يوجد حتى ولو لم يوجد البشر كزهرة تبتسم أو تتألم ولكنها على كل حال تنمو ، تستطيع أن توجد دون وجود البستاني .

التاريخ ، يا له «أزعر»!

فاضلة مناضلة . أحييها وأمجدها . انظر إليها من نافذة ضعفي . أنا أعلم أن الخيانة هي في التخلي عن الجماعة . إنها طلاق . وأنا لم أطلق . أنا لا قدرة لي على الحياة . والحب ، بل حتى على الموت .

لقد تقاعدت يا دكتور قدير ، اعترف بذلك . ولكنك لست كذلك البطل الشاعر ببطولته الذي استنفذ زمنه فارتضى بأن

يصبح مدرباً أو بائع دراجات .

إن الفاضلات والعمرين وكثيرين مثلهم ، وعلى شاكلتهم ، هم الأبطال ، هم الذين أصبحوا أبطالاً ، الأبطال الوحيدين .

النور سيكون لك ، يا صغيرتي!

أما نحن فلنتقاعد ولنمت سريعاً .

الكلمة الآن هي للفاضلات .

٢٥

سينبلج الصبح خلال ساعات . فأنا أسمع طقطقة الأوراق الميتة في الأزقة وهي تتكدس .

يجب أن توقظ السيدة كوست زوجها كما أيقظت ماضيَّ ، كما تراقبني فاضلة وهي تحزر الأفكار التي تحت جبيني والتي تمزقني وتؤلمني .

وجرمين ماذا تصنع ، أينها ، بماذا تحلم؟ إني ليؤلمني أن أتخيلها عجوزاً . لقد ظلت بالنسبة إلي في عمر ذكراها التي تبعث عمر القطاف . فإذا بي شعري لا بياض فيه . كتفاي مستقيمتان ونظرتي بريئة من كل مرارة . وليس الأبطال وحدهم الذين يتحدون الزمن .

قريباً من الفجر ، بات صوت فاضلة أقل قسوة . إنها ترتد إلى إنسانيتها شيئاً فشيئاً مع النهار الذي يتبدى .

- إن تقديم العون لعمر هو أقل ما يمكن أن يطلب إليك . . .

وعادت إلى اتزانها وقالت دون وقاحة :

- إن العون الذي تقدمه هو ليس لعمر بالذات . .

لقد تأخر هذا الليل عن أن ينجلي .

كم بلغ ابن جرمين من العمر الآن؟ سهل أن نحسب ذلك . ستة عشر أو سبعة عشر عاماً . . . أهو ذكر؟ . أهو أنثى؟

ماذا يفكر ذلك الولد برقص القارات؟ هل يشبه أمه؟هل شعره أشهب غامض الحمرة عند الصدغين والنقرة؟ هل تذكرني جرمين؟ هل تتحدث عني إلى مرآتها أو إلى صورة ما ، أو إلى سيارة نقل في شارع سيفر ، أو إلى رصيف في شارع الآباء المقدسين ، أو إلى طير لقلاق في شارع العرب؟

أنا أقطن في مكان غير بعيد عن القطاف . ولقد متُّ مع العنب الذي يسحقون . ولقد توازنت الذكرى كما تتوازن الخمر وتطورت مثلها إلى صفاتها النهائية .

وأنا كالخريف ، أزحف مع الأوراق الميتة التي تطقطق في أزقة المدينة الصغيرة .

٢٦

ذلك الفتى الصغير متطوع التحق بالجيش . مقاوم على حق في أن يقاوم . أتخيله جميلاً أجمل من الغضب .

***

- جميلة ، جد جميلة أنت يا فاضلة . هات فمك وكلماتك . فاضلة خجولة ، طاهرة ، فخورة ، خبأت فخذيها بصحيفة . ظن عمر أنه يفهم كل شيء .

***

ومن أسف أن ينتهي الليل .

يا للصباح ، أي مجدّف هو!

***

أنا أغار من الصباح الوليد . غيرة لا لؤم فيها ، غيرة تكاد تكون وداً . أغنيتي ، على ثبج موجة يضنيها أنها لا تدرك لِمَ يحطمها الشاطىء ، أغنيتي تبلى . موجة تنتحر في حمّى يأسها

وهي قريبة من الهدف . إن ابن فاضلة ، وهو أمنية عليا ، لن يرى ما رأيت ، وما علمت ، وأفظع من كل ذلك ما تخيلت .

سيعرف ابن فاضلة القطاف .

وعلى الذين لم يعلموا كيف يتخذون موقفاً ، أن يقنعوا باستقالة أبدية .

نحن على الرصيف والقطار عجلان في أقصى سرعته . وعلى من بلغوا عمري ألا يقفزوا إليه -وهو أمر مستحيل- أو أن يجروا وراء القطار -لأن منظرهم يكون مضحكاً- ولا أن ينزعوا قضبان القطار ، لأنها جريمة . جريمة تفسد التاريخ .

أنا واقف على الرصيف ، أحيي سرعة القطار ، وينتابني بعض من الخوف ، فلقد تبادرت لي فكرة أن هذه السرعة -في رؤيتها ، التي لا ترحم ، الهدف المرموق- قد تشوه إلى أجل بعض المناظر .

إن السرعة على حق حتى ولو أوجعت قلبي .

أنا أغار من الصبح الذي بدأ يولد كما كنت آسف على موعد فاتني ، أو لأني وجدت في غير المكان الذي ينبغي لي أن أكون فيه . أنا أغار من الزمن المضيّع ، من الفوضى الكبرى ، من الحلول المتطرفة .

هو ذا أيضاً صوت الدكتور كوست المدندن الذي يتنزه قائلاً :

- الجراحة ، هي ألا نستطيع سواها ، إنها عدم القدرة المفيد . . .

نعم إنها عدم القدرة الضروري .

وهكذا هي الحرب .

لقدكنت دائماً شديد الإعجاب بالطب العام . لصبره وعناده وتأثيره ، فهو يداهن المرض ويحتال عليه ولكن بوقار . إنه دبلوماسي يعمل دون أن يتدخل . ظاهرياً على الأقل . يبدو عليه أنّه يركّب ، أنه يقبل ، أنه يحتقر العنف ، يستخدم بعد النظر ، ولكنه في نهاية عناده ، وتفاؤله العملي ، يقرر اللجوء إلى المبضع أو الصدمة . إن رسالته في الخلاص هي في أن يتلاءم مع الواقع .

إن الحرب تنتهي دائماً بالفشل . ولا يمكن لعملية ، مهما نجحت ، إلا وإن تترك آثاراً وندبة .

***

في أوج الخريف ، أجدني بلا فرح وبلا مبرر في أن أفرح . وأنا مع ذلك أرتاب بالسعداء من البشر . أنا لا أحسدهم ولكني أرتاب بهم . أنا أقلق منهم . أحسّ دائماً أن تفاؤلهم يجاور الجهل أو الكفر .

أنا لم أفهم أبداً كيف يكون الإنسان سعيداً لأنه يعيش . لأن الموت هو اليقين الوحيد والإثبات الوحيد .

إن صمتي هو العقد الذي وقعت مع عدم قدرتي . لقد أتخمت بما رأيت من موتي! لقدانتهى الشقاء إلى أن يغضبني ولكني لا قوة لي على أن أثور .

أعلمتني فاضلة أن ثلاثة من أخوة عمر قتلوا في المعركة . فأخذت أفسر الكلمات : ثلاثة من أعمام هذا الطفل الذي تريد مني أن أقتله .

إن العبث لا يمكن أن يعلو عليه غير العبث .

- سيعبر عمر الحدود منذ ما يستطيع . يجب أن تساعده ، إنك قادر على مساعدته . .

كان بودي أن أجيب لو لم أقرر الصمت :

- أي فكرة تلك في أن تطلبي من خائن أن يؤوي وطنياً؟

إن قاموس المحارب محموم النزوة . يبسط كل شيء . لديه من جهة الأبطال ومن الأخرى الخونة . ولكني لم أفعل أبداً ما يبرر لفاضلة في أن تنكرني أو تحكم علي . ولست فاراً من الجندية لأنني لم ألتحق بالجيش بالمعنى العضوي الذي يعطيه لهذه الكلمة المناضلون والأنصار . أنا لست شيئاً . ولكن ألا يعمل المرء شيئاً ، في العصر الذي نعيش فيه والعصر الذي لمّا نعش فيه ، ألاّ يعمل المرء شيئاً هو شكل للخيانة .

وتابعت فاضلة قولها :

- أما أنا فسألحق بعمر إلى بلد محايد منذ ما . . .

لقد حزرتُ ما تريد أن تقول وأحست هي بذلك فترددت :

- . . . منذ ما أتخلص .

وجدتُ التعبير بشعاً .

أذكر فيلماً رأيته ، التقط في بورنيو عن حياة السحالي الكبيرة في المحيط الهندي . أرونا السلحفاة وهي تبيض البيض على رمال الشاطئ وكبروا الصورة فرأيناها تسكب دموعاً كبيرة وهي تعاني جهد الخلق وألمه . ثم ترحل إلى البحر بعد أن تدفن البيض في الرمل ، مجهدة ، غير أن العزاء يرينُ عليها ، دون أن تلقي نظرة واحدة على المستقبل الذي يحضنه الشاطئ . لقد أزعجتني هذه الرؤى .

لقد بكت السلحفاة قبل رحيلها . أردت وما زلت أريد ألا أرى في كل ذلك غير ألم طبيعي بسيط . ولهذا لم يكن لكلمات فاضلة في رأسي الموسيقى التي أردت :

- منذ ما أتخلص .

لقد حدث لي كثيراً أن خجلت من كوني إنساناً . ولكن المرات التي داهمني فيها هذا الشعور كما في مثل هذا المساء كانت نادرة .

***

مرّت سيارة مع الدقيقة التي لها زمن . وخدشت قاطرة صغيرة الصمت والليل . أود لو أرحل بعيداً ، إلى أي مكان ،

لعلي لا أرى غير وجوه مجهولة تخفيها وتبديها الصدف في المحطات . وددتُ لو أحمل اسماً غير اسمي ، لو أكون من عرق آخر ، وددت لو أطلي بصباغ ذاكرتي وخيالي . ومن يدري فقد يأتيني الفرح لأن امرأة تنتظرني في نهاية الطريق ، قد أجدها جد جميلة .

قد لا تظل آنئذ كتفاي محدودبتين . . . قد أقفز الرصف بنشاط الشباب الذي عاد إلي .

فتقول لي المرأة :

- كنت على يقين أنك آت ذات يوم أو آخر . . .

وتزين المحطة الصغيرة بالزهور والقناديل ويوشيها غار وردي .

ويصرخ صبي صغير ، هازئ كصرصور :

- هيا أيها العاشقان! أسرعا فعما قريب يبدأ القطاف .

في تلك المحطة أرى في عيني جرمين كل سعادة العالم .

***

أشعلت لفيفة .

إن بي رغبة للموت .

٢٧

جرمين تقترب من الليل . ترفع غطاء السماء . لقد آبت إلى بيتي .

❊❊❊

لن ينتهي الليل إلا إذا تدخلت جرمين بطريقة أو أخرى .

لقد دعاني حبي إليه . يجب أن أتعود على الحقيقة :

- أنا عجوز ، جد عجوز وأحب أولاً جرمين . إن حبي هو نفي للزمن .

❊❊❊

جرمين تعود إلي دائماً . ليست الحرية شيئاً بلا حبي .

ليست جرمين قضية من قضايا ما وراء الطبيعة . لي الحق في أن أجنّ ، لا! . في أن أكون حكيماً ، نعم أم لا؟

لي الحق في أن أحب .

لقد جعلتني الحسرات معلماً . وقبل جرمين كنت نظرياً .

❊❊❊

يعجبني أن أعلم أن الوحدة شيء مذاقة حلو إذا كانت لدينا القوة في أن نكون وحيدين . وفي عمري لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى أبعد من حدود تواضعه . إن الليل ليس بليداً إلى هذا الحد .

كل الأطفال ولدوا من الليل .

***

قد يحدث أن يكون الليل خبيثاً ، ولكن السماء تكون آنئذٍ مغطاة .

***

قال لي شاعر أن الكلاب جميعاً : كلاباً قبلية كانت أو كلاباً عربية لها نفس العواء في محكمة الدوار . إنها تصرخ . والليل يسعّرها .

إن الليل أقل شجاعة من ذلك الراعي الذي يترك خرفانه ليسوق نجوماً أخرى وقطعاناً أخرى .

إن الليل لشجاع .

٢٨

إن مشكلة الانتقاء لا تفرض لي وضعاً . ولا يمكن أن يكفي لإنقاذي قناعتي بأني فاشل . أنا لا أنتظر أيّ فرح من المستقبل . إن المستقبل ليس فرضيّة بالنسبة لي ، إن له قيمة ما ورائية (ما وراء الطبيعة) . وهو لا إنساني بهذا المعنى . لا يملكه إلا الله . أنا مسؤول عن الماضي وخاصة ماضيّ . إن حادثة إنقاذ عمر من قوى القمع لا تثبت - حتى ولو قاسمته إياها دون أن أقدم دليلاً - المشاركة بين افكاري وأفكاره . إن هذا العمل غير ملزم لي . يجب أن ننتظر شيئاً ما حتى تزعم أننا منسجمون مع ذاتنا ، حتى نتسق مع ذاتنا . وأنا لا أنتظر شيئاً لي . ولكني أنتظر كثيراً للآخرين .

إني عندما أقدم العون إلى بطل الشمس الفتيّ أؤكد على الإحسان أكثر مما أؤكد على التعاون . لأن النابض قد كسر ، والحماس خبا ، بله أني لست على شيء من الحماس . وفي هذه الشروط يكون الإحسان سلباً . يصبح صدقة . لأنه يفقد

بكل بساطة ضخامة وحرارة الغضب المشترك .

لكم أفضل أن تتعرى ابتسامتي من الكياسة والعطف وأن تشهد على موافقتي ومشاركتي .

***

بلغت الساعة الرابعة صباحاً . واستفاق الليل ونهض وما زال بالستائر شيء من حنانه البردان . فاضلة شاحبة . لا تدخن ولا تتكلم . بل تنتظر وأنتظر أنا معها أن نجتاز حدود الصمت . وجنتا فاضل بيضاوان والليل أبيض . لقد شخنا مع الليل .

إن فاضلة والليل يعرفان كيف يتجددان . فالليل عاد في الشعاع الذي يحوم على شجرات الدلب ، وفاضلة تبدأ مرة أخرى بابنها . وأحسّني في نهاية الليل على أهبة السقوط في حفرة لا نور فيها ، ولا قعر ، ولا بعد ، بل ولا معنى . أنا مشدودٌ إلى النهار والليل . أنا حاضر لم يعد يحتمل حضوره ولا ينتهي منه .

بعد ظهر هذا اليوم رافقت الدكتور كوست إلى بيته . لقد مات صديقي الأخير .

أما أنا فعندما أموت لن يسعدني الحظ في أن أرقد في بيتي . وما الفرق في أن أموت هنا أو هناك؟ الفرق واضح . إن المرء يحس بالبرد في وطنه أقل مما يحس به في مكان آخر .

ستزين السيدة كوست القبر بالورد . وفي كل عام يزور القبر أخت أو ابن عم . . . لقد انتخبت المدينة الصغيرة الدكتور كوست . لقد حملته في قلبها كما ستحمله في أرضها وستحفظه . وستروي ذلك الكنائس للحمائم التي يشدهها الموكب الصامت .

إن ما بقي لي من حياتي هو ملك لجرمين . فالفجر يستطيع أن يحيك مرارته . أنا أحب جرمين . في الحرب وفي السلم ، شاء الله الرحيم أم أبى الشيطان ، أحب جرمين . في الخريف ، وفي الربيع أحب جرمين . أحببت جرمين وأنا ابن ستة شهور . أحببتها قبل أو أولد . لقد وُجدت منذ أحببتها .

وأنا سخيف كوليد جديد .

٢٩

الليل الأبيض يغمر الكون . لقد أخطأ البشر في معرفة إلههم الكريم . إن أفول الحضارة يقاس بهذا الواقع ، إن الأطفال باتت لهم مخاوفهم . إن زمن الأبطال هو أحزن الأزمان .

نامت فاضلة وشعرها يسيل على ابتسامة كئيبة بعيدة . أسمع تنفسها الخفيف فتداهمني نفحة عارمة من الحنان . لقد فقدت عادة رؤية الأطفال وهم ينامون . كنت قادراً على أن ألاحظهم وقد سقطوا إعياء أكثر مما لو كانوا نائمين ، أو عندما يتركون للسبات الاصطناعي الذي يحدثه المخدر . أنا مدين لهذا النوم ، لهذا السلام الذي عاد الآن على وجه ابنتي . أنا حارس شقائها .

***

لم أستطع مقاومة الإغراء . فعلى الطاولة محفظة فاضلة تدعوني ، تحفزني . في هذه المحفظة يوجد دفتر وفي الدفتر صورة ، الصورة التي أرتنيها فاضلة ، صورتي ، أنا لا حقّ لي في فتح المحفظة . إن هذا العمل تلصص ، استغلال للثقة ، لأن

ابنتي نائمة وبه انتهز فرصة نومها . إنه سرقة مع استعمال العنف . إنْ تنفسي يبدو وكأنما تنظمه تلك المحفظة الزرقاء ، وهذا الدفتر الذي يحفظ صورة شبابي . لا ، ليس هذا حب اطلاع ، إنه لحج أن يرى الإنسان صورة ، صورة له منذ ثلاثين عاماً .

وأتتني الشجاعة ذات يوم في أن اقرأ رسائل جرمين . كنت من أجل ذلك بحاجة لكثير من الشجاعة . الكثير منها . لم أقدر على الفهم . لأنه لا يوجد بين ماضيّ وبيني زمن فحسب . فهنالك ثغرة ، ثغرة لا يمكن مقارنتها مع الفراغ المعتوه لفاقد الذاكرة . كان هنالك انقطاع .

قرأت مشدوهاً الكلمات التي وجهت إليّ ، الجمل التي أرسلت إليّ بشعور يشبه حب اطلاع مريض يدفعني إلى معرفة رسائل حب مستلهمة من ندلي في حبي .

إن شهوة الحج تنبثق من الحنين إلى الأرض أكثر مما تنبثق من إرادة الأمانة . يقول مثل عربي «ما فات مات» . ولكن هذا المثل مخطئ . ومن لا يرغب في رؤية الموتى؟ في أن يرى نفسه؟ إن المعركة المستحيلة ضد ما لا يمكن رأبه لتراودني .

أنا أعلم أن في محفظة فاضلة صورة ميت .

هو أنا .

لقد صرّ قليلاً مفتاح المحفظة . وارتجفت يداي كيدي لص . لو استفاقت فاضلة . .

أنا لم أعد في العمر الذي أفاجأ فيه ويداي في إناء الحلوى . . .

لحسن الحظ لم تسمع فاضلة شيئاً . ما زالت نائمة وشعرها عالق بابتسامتها الحزينة .

فتحت الدفتر .

كنت أنتظر أن أجد خطاً عصبياً ، دعيّاً بغموض لطالبة جامعية تستعجل في تسجيل ملاحظات يتبعثر عليها الشطب والتصحيح والرجوع إلى صفحات أخرى . ولكني وجدت على عكس ذلك دفتر طالبة مجتهدة ، منظم بهدوء ، فيه خطوط بالمسطرة ، ومقاطع صغيرة نقلت بريشة تضغط بقوة ، أما الحبر فبنفسجي . وقد كتبت معلمة على الهوامش «شوهد» و«جيد» و«يمكن أن تتحسني» . . إنه دفتر لفاضلة عندما كانت في المدرسة الابتدائية .

كنت أجهل أنه توجد أيام اثنين ، وثلاثاء ، وخميس ، يسر الطالب فيها أن يفرّ من المدرسة ، ودروس حساب ، ودروس أخلاق أبلد من درس ديني يعطى بلغة أجنبية ، ومطلقات ، مطلقات في كل مكان . إن التعليم في المرحلة الأولى لا يتنبه لأي أمر .

توقفت عند الأربعاء . إنه درس «تاريخ» . قرأت الملخص : «كان العرب محاربين شجعاناً وقساة . . ولكن رولان نفخ بشدة

في البوق . .» .

فاضلة يا ابنتي المسكية .

بحثتُ عن صورتي . صوت الأوراق التي افتحها يبدع موسيقى أرغن وفي الغابات المستعبدة ريح عارمة منتصرة .

أسمع خبب خيول العرب الشجعان القساة . . جرمين تسير في موكب الزهور . . العنب يسيل ثلجاً منيراً .

«منذ ألفي سنة كانت تسمى فرنسا «غاليا» وكان يسمى سكانها «الغاليين» . وكان يعيش آباؤنا الغاليون تقريباً كما تعيش الآن القبائل المتوحشة . .» . كان جدك ، يا فاضلة ، يسمى السي علي . .

هيا ، أيها العاشقان ، أتريدان قطاف النجوم؟ إن الرطوبة التي كانت تصعد من القناة لم تعد كافية لتوضح هيجان جرمين . .

«هجم الدوق دومال على قبيلة عبدالقادر . . أليزيا ، رمى فيرسنجيتوربكس سيفه تحت قدمي يوليوس قيصر . .» .

إن دفتر فاضلة يحوي كل عبث ، كل حذق هذا العالم .

«كان العرب محاربين شجعاناً وقساة» .

كان معلمي ، وأنا أحضر الشهادة الابتدائية ، صديقاً متعصباً لفرنسا . كانوا يلقبونه (بالمطورني) لأنه تجنس بالجنسية الفرنسية . بل يظنون أنه لا يصوم رمضان . وكان بالواقع ملحداً

عن عمق لم تتح له فرصة بائسة يعلن فيها إنكاره لمعتقده، وكان مقتنعاً بقوة أن وجود وطن مشترك حقيقي يمكن أن يلطف قسوة أقدارنا في ظل العلم المثلث الألوان الخيّر. كان رجلاً محترماً ككل أولئك الذين لا يحوّل إيمانهم إلى قضية.

ولقد علمت بعد سنين طويلة أنه جعل من «مشروع بلوم – فيوليت» مثلاً أعلى له. كان البرنامج يؤدي بنا دائماً إلى دراسة بعض الحقب ولا أدري أية أنانية كانت تدفعه لاستعادة قوة جرأته. فكان يقول للأطفال الذين كنا:

– جواباً على الساعات التي قدّمها السلطان إلى شارلمان، أهداه هذا كلاب صيد..

ثم يلح بهيئة فيها خبث:

– من جهة ساعات، الساعات الأولى في العالم.. ومن الأخرى كلاب سلوقية.. نعم، سلوقيات، كلاب! لا، لم يكن الرب من الشعوب البربرية.

وكنا نهتز غروراً كأننا نحن الذين بنينا واخترعنا هذه الساعات.

كان بريق الماضي العظيم يعزينا وينتقم لنا. كان يملأنا في سن الثانية عشرة الشعور بشقائنا التاريخي.

ثم صفحة بيضاء في الدفتر، صفحة بيضاء كالليل. أظن أن فاضلة تغيبت في ذلك اليوم «فقفزت» بعض الصفحات

كي تنقل فيما بعد القطع الناقصة . صفحة بيضاء . صفحتان بيضاوان . .

ذلك اليوم تركت سعدية ، تركت فاضلة ، تركت القرية ، تركت طيور اللقلاق التي أعرفها ، ومصابيح الاسيتيلين التي أعرفها ، والبزّاق الذي أعرفه . ذلك اليوم أردت أن أترك جرمين . كنت أجهل أن الماضي يعارض بالطلاق . إنه ينتقم في ذاكرتنا .

بين هذه الصفحات البيضاء دست فاضلة ، في عبث مر ، صورتين ، صورتي وصورة شاب ، صورتين تفصل بينهما صفحتان بيضاوان والتاريخ الذي التقطتا فيه .

لم أشك لحظة في أن صورة الشاب هي صورة عمر . أما الأخرى . .

لم يخب ظني . لعمر عينان هما دائماً على حق . وفوق ذلك له الحظ في أن يكون شاباً اليوم . أحب هذا الفم الذي هو بحاجة لأن يتكلم ، تلك الشفة التي يفضحها التحدي .

ظل كتفي يغطي الصورتين .

مرّت طيارة تقطع الصمت . الهمهمات الأولى تقفز على الرصف . ستستيقظ عما قليل المدينة الصغيرة الدائمة الوسن وتعمد إلى فتح نوافذها وعيونها

قارنت بين الصورتين . لن أنسى تلك النظرات التي تتلاقى على ملتقى الأجيال . إحداهما كانت تتكلم عن القطاف

والأخرى عن الحصاد .

« . . كان العرب جنوداً شجعاناً وقساة . . » .

الأوشحة الأندلسية التي حيكت على نغم القيثارة ، الشعير الأسود ، والقمح القاسي والقمح اللدن ، وكؤوس الليمون المثلج الصغيرة ، وشارع العرب ، وابتسامة صديقي ، ولباقة البحر العاشق في بلدي ، يا إلهي ، يا إلهي ، والطرزانات والزورو في شارع العرب ، يا إلهي ، وتلك الزيتونة التي تنتظر حمائمها ، يا إلهي . .

***

أعدت الصورتين للدفتر والدفتر للمحفظة .

كانت تنظر إليّ فاضلة بعيني يوم الأربعاء يوم درس التاريخ . لقد رأت كل شيء ولم يتسع لي الوقت كي أتخذ وضعاً مناسباً . هل كانت تلك الطيارة تحدث منذ لحظة مثل الضجة التي تحدثها الآن؟ هل أحدثت ضجة تفوق صرير المفتاح الصغير؟

هل خفق قلبي الذي كأنه قلب لص بمثل هذا الوجيب؟

كأنني ما زلت أسمع فاضلة تقول :

- أنكما جميلان ، أنتما الاثنان .

أظن أنها تصنعت النوم . ولكني أظن قبل ذلك أني سأظل في العمر الذي أفاجأ فيه ويداي في إناء الحلوى .

٣٠

إنه لفاضح أن تكون الشمس اليوم زرقاء . شمس الجنوب التي تتعلق بأشجار الدلب وتتمسك بها غيمة كي تسندها ، ويتسامق إليها برج جرس كي يحفر فيها . حتى إذا جاء العصر رفض الخريف أن يقنع المدينة . فيتنزه على السطوح أو ينزل إلى الأزقة المتعرجة ليستدفئ في ما يبيحه من الشمس . وجنود يسيرون الخطا المائة . يحملون على رؤوسهم قارباً مقلوباً . وسطوح المقاهي تبرّد عصير الليمون . وسائح يصور ينبوعاً كأنه لا يوجد ينبوع في بلاده ، في بلدته ، في قريته ، في وطنه . إن حبوب الدواء هي ذاكرة المعتوهين .

لا بدّ دائماً من وجود كلب يتساءل ما يفعل على الأرض . هنالك دائماً كلب قد يكون يتيماً أو لقيطاً .

وهنالك هؤلاء الشيوخ الذين تغنى بهم ذات شاعر ، يجلسون على المقاعد . حتى يأتي صهر لهم عند المساء كي يعود بهم إلى البيت . فتستطيع آنئذ أن نراهم وهم ينزعون

الصدأ عن مفاصلهم ثم يغيبون في الأزقة . كل الفرنسيين يحملون ، إذا جاوزوا السبعين عاماً ، أو سمة . هي تقدير لفترة ما قبل الموت .

يدفع المواطنون لأن يعطوهم النعت الذي يمكنهم من الموت ومجتمعهم يحترمهم ، ولهم في الضاحية سمعة حسنة . .

الفرنسيات يتشحن بالسواد عندما ينتهي عهد التعتيم في نظراتهن المنطفئة . وهل يفعلن ذلك لأنهن أرامل أم حداداً على الصبية التي كانت تنزل إلى الساحة معتزة بصدرها وخصرها؟ لقد كنّ تلك الصبية .

ساعة واجهة قصر العدالة تتأخر دائماً .

بورتاليس يتطلع وأنفه مجذوم من الجدري أو ريح الشمال ، إلى الحمائم في الكاتدرائية ، الحمائم التي تملّ في يوم الأحد . وراء قصر العدالة يوجد سجن ، سجن للأوبيريت يدهنونه كل عام .

تلك مدينة ما كان ينبغي لها أن تمتلك مقبرة . ما كان ينبغي لها أن تمتلك قصر عدالة وسجناً . لقد لاحظت أن الحمائم لا تجازف بالعبور من جانب قصر العدالة أو السجن حتى في أيام السوق التي تصبح فيها نواتئ الجدران كريمة . إنها تفضل الكنيسة . ولا تثور الحمائم كأنّ لها كرش ضخم . ومشية مستشار عام وعيون بوليس حربي حذرة . كريمة بالخبز المبهّر .

***

أنا أسير كالمروبص . أحقاً أنا سائر وراء جنازة صديقي؟ وعلى الأرصفة رقعاء يرسمون إشارة الصليب . ويكمل الضدّ فيصفق طفل على كتف أبيه . . إن منظر الخيل هو الذي يفرحه ولا شك . . . ومررنا بين مطاعم ، وبقاليات ، ودكاكين حلويات .

مررنا من وسط الحياة . قلبت صفحة ، وأنا الذي يدفنون . .

عندما تركت البيت عادت فاضلة إلى النوم . رفعتها ووضعتها على ديوان ولم أكن أعلم أني ما زلت أتمتع بهذه القوة . ثم ذهبت إلى المستشفى قبل أن أمرّ بالسيدة كوست أقول لها صامتاً أني متألم .

كان غَضَنٌ يحفر في جبين الدكتور كوست شكل إشارة استفهام . وخلتُ أن ابتسامة تتسلى في زاوية الشفة المتغضنة . ظننت لحظة أنه يريد أن يكلمنا . أظنه كان يكلمنا . . أنا لم أعد واثقاً في أي شيء .

أأنا على حق في أن أرفض شيئاً تطلبه فاضلة؟ أين الخير؟ أين الشر ما دام الموت يجمع بين هذين الحدين في نهاية واحدة؟ هل أمنح العون لعمر؟

إنها ليست أزمة وجدان تلك التي أُواجهها . إن منحي العون لعمر ليس انتقاء . والحياة ليست فكرة ولا مثلاً أعلى ولقد انتقيت الحياة . أودّ أن أكون حياً . أو أن أموت شريطة أن

أعرف كيف أبتسمُ مثل الدكتور كوست .

***

المقبرة تبعد قليلاً عن المدينة . مرّ اخرس السابع بكرم . فانتصب قاطفو العنب ، ونحن نمرّ بالحياة . ولكن الخريف احترم الدكتور كوست . إن مجده خفيّ . واستغرب الأطفال وصمتت الأغاني ولكنها ستتردد بعد قليل .

إني أجدّف ولا شك . الدكتور كوست ، جرمين ،فاضلة ، عمر ، وفي الواقع لا أتحدث إلا عن نفسي . ولكن هل أشاهد الآن غير دفني أنا؟ ألم أقض حياتي كلها وأنا أدفن ، أدفن نفسي منذ القطاف الوحيد الذي أعرفه وأحببه ، منذ الرطوبة التي كانت تصعد من القناة ، منذ النجوم اتي أردت أن أحصدها . .

يا إلهي ، كم هو غلط التعبير الذي يزعم :

- لا يموت الإنسان غير مرة واحدة . .

***

لم أستطع أن أسمع ما قاله الراهب ولا الخطابات لأني لم أكن في الصف الأول . كنت أعلم فقط أن صفحة قلبت .

إن سلام هذه الأمكنة يهدئني . ولا يوجد مكان يتطامن فيه الإنسان بمعنى ما ، مثل المقبرة . لأن الموتى لا يهتمون بنا . لقد كنت شديد الإحساس دائماً بالعشبة الصغيرة التي

ترتجف على أقدام القبور وبالسروات التي ترسمها أبدية فتحددها تلك وتوضحها ، والإهداء الذي يخطه الأحياء على الحجارة الثقيلة كأنها غلاف رواية لا نعلم عن حياة مؤلفها غير أشياء قليلة .

كل مشكلة هنا ، لها فخامة الصمت .

***

لن أصافح الأيدي ، أو أستعرض شهود هذا المصير ، أو أقول كلمات لها رنين كاذب كرنين جرس النعي الذي تردد الساعة في السماء ذات العيون الزرقاء .

إن الرمال تحفظ أثر المواعيد ، ووقفة الاستعداد العظيمة ، والركب التي تريد الثأر بذراع ترتفع إلى الله .

لماذا لا توجد طيور لقلاق ومصابيح أسيتيلين في المدينة الصغيرة؟

***

سأزور السيدة كوست في بيتها هذا المساء . وأنا بحاجة من أجل ذلك إلى الحزن أكثر من حاجتي للشجاعة .

وبعد؟

وبعد ذلك لا أعلم ، لم أعد أعلم . .

٣١

كنت أشمّ في الدرج العريض رائحة الرحيل ، ولا أشمّ رائحة الفوضى العادية ، أو تغيير الأثاث .

لم تفتح لي الباب السيدة كوست ، بل فتحته ممرضة .

كان الظلام ينسحق في الغرف . والستائر المسدلة تمنع النهار وتمنع الليل . . .

لا أحد في غرفة الانتظار . لقد علق الدكتور كوست مواعيده .

***

هل أفتح مجلة قديمة وأتصنع وضع مريض لا يعرف تماماً ما يوجعه؟

الصمت كلي . لقد مات البيت كما مات صاحبه .

ولقد كان مع ذلك صاحبه يبتسم على الجدران بين الأطباء الداخليين ، تلك الابتسامة الخفيّة التي لا صوت لها . التي ما كانت تحدث أي صوت .

غريب هذا ، فأنا لن أتعود التفكير في الماضي .

أنا انتظر منذ زمن طويل في الصالة ، منذ قرون ، منذ الأبد . لا أجرؤ على التدخين ، ولا على أن افتح مجلة ما .

لقد رحل الدكتور كوست فجئت أقول وداعاً لأرملته ، ولصورته بين الأطباء الداخليين . إن الموت ديني .

***

– . . بوسعك أن تدخل ، بوسعك أن تدخل . .

لم يتعكر الصمت . كنت بحاجة لهذا التدخل كي أنتشل نفسي من اللحظة ، من تأمل اللحظة .

لم يكن للصوت صدى ، ولكنه كان ثابتاً .

استقبلتني السيدة كوست على عتبة الهيجان الذي تخفيه . كانت رزينة ، حزينة ، على نوع من الصفاء مسكوب بالوقار .

ولا يوجد في الظاهر ما يبدي اضطرابها وحزنها .

فوقفت ثقيلاً ، حائراً وولجت وراءها في صالة أخرى . لن تقف أبداً الساعة العتيقة التي استقبلتني ، بل تخدّر الصمت دائماً بوجود ما وخلود ما .

أثقل علي الظليل . حدّد أفكاري .

أنا سجين في الظليل .

***

سحبت السيدة كوست الستائر . فدخل النور خجلاً .
وبدت لي السماء كأنها وردية .
كان في زاوية من الزوايا شاب عرفته فوراً ، يتكئ على صندوق قروي .

قلت له :

- تعال يا صغيري . إن فاضلة تنتظرنا .

لقد نجحت آخر عمليات الدكتور كوست .

أكس أن بروفانس

باريس -- آذار ١٩٦٠